أزيز الجحيم

اســـم الكتـــاب: أزيـــــــــــز الجحـــــــــــيم

التـأليـــــــف: نـــــــوار مهـــــــدي النجـــــــار

مراجعة وإخراج فني: عمـــــرو وســـــالم ســـــواح

رقـــم الإيـــداع: ١٩٥٤٨ /٢٠١٩

التـــرقيم الـــدولي: 978-977-835-148-4

الناشـــــــــــر: دار زحمة كُتّاب للنشر والتوزيع

١٥ ش السباق – مول المريلاند – مصر الجديدة – مصر

دار زحمة كتاب للنشر Facebook

za7ma-kotab@hotmail.com Email

002 01205100596 Tel

002 01100662595

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة ©

لدار زحمة كُتّاب للنشر

لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

أزيز الجحيم

رواية

نوار مهدي النجار

(١)

ليلة القبض على الطريدة

أبي كان يأمل أن أولد وأعيش حرًّا وطليقًا فسماني "ازاد" قبل أن يفارق الحياة دفاعًا عن الوطن؛ فقد زُج هو والكثير من أبناء جلدته في حرب استمرت ردحًا من الزمن كانت كافية لتحصد اليانع من شبابنا. لا أحد يعلم السبب الحقيقي الذي يقف خلف اندلاعها، ولا أحد بيّن لنا الاتفاقيات السرية التي بموجبها تم وقف إطلاق النار.

"أبو حيدر" جارنا أصبح بلا ساق؛ لأن لغمًا أرضيًّا انفجر فيه وفي رفاقه فجعلهم عصفًا مأكولًا، أما "وداد" وهي من أقارب أمي من بعيد فقد شقت جيبها ولطمت خدها عندما سمعت أن العدو أصاب جبين زوجها وهما لم ينهيا شهر العسل فصدق من قال:

"إن كل رصاصة في الحرب لا تقتل شخصًا واحدًا بل كل واحدة تقتل اثنين".

آلاف الحالات المشابهة لجارنا أبو حيدر والعروس وداد خلفتها تلك الحرب.

أحدهم أخبر "أبو ازاد" أن الوطن أغلى من حياته وزوجته وأولاده فتركنا إلى الأقدار تتقاذفنا يمينًا ويسارًا، فمرة أبيع الماء في "تقاطع المسبح"، وتارة أخرى أبيع "حب، جكاير، علج" في الباب الشرقي وصولا إلى منطقة السنك.

كنت محظوظا منذ ولادتي، عفوا كنت محظوظا ولكن ليس كثيرا ... لا أعرف كيف؟، ولكن على الأقل نجوت من محاولات الاغتيال العديدة التي تعرضت لها. نعم... فأنا مثل المشاهير والزعماء الأفذاذ تعرضت على الأقل لمحاولتي اغتيال فاشلتين حين حاولت أمي إسقاطي من بطنها عدة مرات. لم أكن مرحَّبا بي فالفتات الذي تجلبه كان يكاد يكفي إخوتي. خالتي "بلاسم" كانت تغص بالضحك عندما تقارن عملية ولادتي المتعسرة التي أجريت في بيت الجدة "أم رزوقي" مع ولادة طفل في مستشفيات إحدى الدول الغربية فالفرق مجرد فجوة زمنية تزيد عن مئتي حول.

شاء من شاء وأبى من أبى كتب لي أن أعيش وأكبر. الرجال المسنون في "المنطقة" الذين يجتمعون في "راس الدربونة" يتبادلون الأمثال والقصص القديمة كنت أسمعهم يقولون: "الحي لا يقتله قاتل"

كان اختياري لكلية اللغات قسم الإنكليزي من الخيارات القلائل التي اتخذتها بدون ندم، ليس بمحض إرادتي بشكل مطلق، ولكنها كانت قسمة عادلة إذا ما أخذنا بنظر الاعتبار معدلي في "البكلوريا" وظروفي المادية في كفة وشغفي بتعلم اللغات في كفة أخرى، فأنا مُهوَّس بتعلمها فأجيد منها الكردية والعربية والإنكليزية والتركمانية وقريحتي تستوعب المزيد، لا أحب الترجمة إلى لغات أخرى فقط، بل هي الشيء الوحيد الذي أتقن فعله.

أحس بنشوة عندما أسمع صدى المفردات وإيقاع الحروف في الألسنة الأعجمية المختلفة. شغفي باللغات ربما كان نتاجا حتميا للنسيج الفسيفسائي المتنوع لمدينة صغيرة شمال بغداد تسمى كركوك يختلط فيها الناس مثل كوكتيل عصير الفواكه.

حتى عندما تسنح الفرصة للسفر لمحافظة أخرى فأنا أستلذ بتمييز اللهجات وطريقة تكلم أصحابها؛ ففي الجنوب يضعون كلمة "جا" قبل كل جملة تقريبا "جا اكلك" و"جا رحت لبيت فلان" و" جا ليش ما جيت ويانة للعرس"، أما الغربية فلا تكاد أي جملة خاصة الاستفهامية منها أن تخلو من كلمة "عجل" فصديقي مروان يقول: "عجل ما اجيت؟" و"عجل ما رحت؟" و"عجل ما اكلت؟"

يشاع أن بعض هذه المقاطع في اللهجة العراقية لها جذور تمتد لعمق التاريخ السحيق قبل ولادة السيد المسيح بآلاف السنين. أمي دائما تقول لي: "يمة وليدي، مو تمشي وية أصدقاء السوء، تره أخاف عليك" فكلمة "مو" المستخدمة بكثرة في كلامنا الدارج ماهي إلا كلمة بادئة في اللغة السومرية.

وتبقى كلمة "شكو ماكو" أيقونة اللهجة العراقية التي تعني نوعًا من السؤال عن الأحوال والأخبار الجديدة، أما أصلها فهو "ماكو\ اكو" من بقايا اللغة البابلية القديمة عندما لا يوجد شيء نقول "ماكو"، و"اكو" عند وجود ذلك الشيء، كنت أنا ومروان زميلي في الجامعة نبحث أيام الصبا والشباب في الجامعة المستنصرية عن جذور تلك الكلمات الغريبة المكونة للهجاتنا الجميلة في أرض الحضارات.

عندما تتخرج تضع شهادة التخرج بالقرب من صور المتوفين من الأقارب في غرفة الاستقبال لتعطيك دعما معنويا لا أكثر باستثناء بعض الحالات القليلة التي يجد فيها الخريج فرصة جيدة مباشرة بعد التخرج. وأنا من باب الوفاء وضعت شهادة التخرج المترجمة بالدرجات بجانب صورة والدي ولكني بعد فترة من الزمن قررت أن أغير مكانها وأضعها في صندوق الحاجات غير الضرورية في "البيتونة" بعد أن زارنا عمي "حجي مكي"؛ فقد قال عبارة من غير قصد أشعرتني بالضياع:

- لماذا تضعون ورقة تحليل البول بجانب صورة المرحوم أبو ازاد؟

أمي كانت تدعو لي ليل نهار... جهارا ومرارا أن أحصل على وظيفة بعد التخرج ربما لأنها تشعر بعقدة الذنب من محاولاتها المتكررة للتخلص مني وأنا جنين، أو ربما لأنها تريد أن تزيل حملي من على جيدها فالأجياد تنخ إذا ما عظم حملها.

جربت الدعاء فما نفع دعاؤها في كسر شفرة الفساد في وطني، فلجأت إلى النذور والصيام فما جنت غير الجوع والعطش. كان لديها برد اليقين أني أستحق وظيفة أفضل من تلك التي كنت أشغلها، في الحقيقة هي لم تكن وظيفة بالمعنى الحرفي للكلمة بقدر ما كانت مصدر رزق متواضعًا.

لا تتفاجؤوا أيها السادة إذا قلت لكم إني كنت أجوب شوارع وأزقة وتقاطعات كركوك وبغداد عاصمة ثاني مصدر للنفط في العالم أبيع الشاي للمارة، نعم هذه هي الوظيفة التي أشغلها ويحسدني عليها الناس، ليس كل الناس ولكن على الأقل البعض منهم؛ فأبو حيدر جارنا تمنعه الإعاقة من

أن يحصل على وظيفة مثل التي عندي فهي تحتاج إلى قدمين نشيطين يجوبان الشوارع ذهابا وإيابا من أجل درهم هنا ودراهم معدودات هناك.

على الرغم من أن هذا العمل كان لا يغني ولا يسمن من جوع، ولكن كنت أشك بيقين أم ازاد أني أستحق مهنة أفضل من بائع شاي معدم؛ فصديقي "إياد" خريج القانون كان يعمل في مقهى وصاحبي الآخر "عماد" خريج الطب البيطري وصاحب نكتة ودم خفيف يعمل سائق أجرة وبعد منتصف الليل يوصل المومس "لهيب" من ملهى الأكابر في السعدون إلى شقتها في مجمع "شقق زيونة"، كانت تعطيه خمسة وعشرين ألف دينار مع الإكرامية حسب الزبون ووقت الانتظار.

كنا نجتمع في كشك صاحبنا " شعلان" نلعب "الدومنة" وننتظر عمادًا بفارغ الصبر ليقص لنا الأحداث المشوقة التي صادفته مع لهيب لكنه كان يتوقف عند اللحظة التي ترمي عليه "البخشيش" وتصعد مع عشيقها سكارى ونصف عرايا إلى عش الغرام فيتنهد وتخنقه العبرات. أحس أنها أصعب اللحظات مرارة وأكثرها مهانة.

في إحدى الليالي وكالعادة ركبت الفنانة لهيب في تاكسي عماد بعد أن أنهت فقرتها الغنائية في الملهى وكان معها زبون جديد. يبدو أنه شخصية مهمة ومسؤول مرموق في الدولة فقد استنتج عماد ذلك من عطره وبدلته ونظارته الشمسية التي يلبسها في الليل و"الجكارة" الفاخرة التي يدخنها ومن تملق لهيب له؛ فقد كانت تلتصق به كما يلتصق القطب السالب من المغناطيس بقطبه الموجب وتقوم بحركات إغرائية وتحضيرية له قبل الليلة الحمراء الواعدة.

كانت تأخذ في الليلة الواحدة "تبياتة" خمس أوراق أي ٥٠٠ دولار، ولكن عماد سمعها تتفق مع الزبون "الثقيل" على عشر أوراق تشمل الرقص والفراش ومشروب الويسكي نوع "شيفاز" والمقبلات "المزة" و"النركيلة".

- أبو زيدون حبيبي، لقد وصلنا لنصعد إلى الشقة فجسمي خدران ولا أستطيع الانتظار أكثر.

كانت تبيع له الهوى باحترافية عالية. كانت توهمه بأنه جميل وجذاب ومفترس جنسيا على أنه أصلع وبدين ومتزوج من امرأتين وله أربعة أطفال ويعاقر الخمر والثريد، لكنه كان يثير غريزة لهيب عندما يتحدث عن صفقات بمليارات الدنانير يقوم بها مع مسؤولين كبار في الدولة.

صعد العاشقان إلى الشقة وتركا عمادًا ينظف سيارته "السمند" من قاذورات بعض الزبائن الذين يرمون "كشور الحب" وقناني المياه الفارغة وحتى أعقاب السجائر في المقاعد الخلفية. كان يتمتم: "لو كان أبو زيدون أحد أقاربي لكنت الآن موظفا في دائرة محترمة بدلا من شغل التاكسي المهين".

في أثناء حملة التنظيف وجد عماد محفظة نسائية سوداء يشك أنها تعود للهيب فتحها مباشرة ليجد فيها قلم حمرة وعلبة عطر صغيرة و"واقي ذكري" عدد أربعة وزيتا ومرطبا للمناطق الحساسة، بالإضافة إلى "وارد" الليلة في الملهى وهوية لهيب وعليها صورتها القبيحة قبل عمليات التجميل والنفخ والشفط.

كان ينظر إلى شباك شقتها المضيء ويعيد النظر إلى المحفظة محاولا اتخاذ القرار في إعادتها الآن أم غدا مساءً، لكن الفضول والهيجان الجنسي الذي سببته حركاتها الشيطانية دفعاه للصعود إلى شقتها لعله يجد المزيد من الإثارة.

- أنت أفضل سائق في الوجود، سوف أعطيك إكرامية كبيرة غدا.

شكرته كثيرا وهي تحاول تعديل خيوط "حمالة الصدر" الملتفة. يبدو أنها لبسته من جديد على عجالة. كانت تستند بصعوبة على الباب ورائحة الويسكي تفوح منها ومن المكان كله.

- لا داعي للشكر.

لم يكن عماد طماعا واكتفى بالإكرامية واللقطات المثيرة للهيب والتي ستظل بذاكرته طويلا واستدار ليعود يلتقط رزقه.

- لحظة عماد، هل من الممكن أن تشتري لي شريط "فياكرا" مئة ملي غرام من الصيدلية التي تقع في "ساحة ميسلون" وتنقذ الليلة؛ فحال أبو زيدون لا يسر عدوا ولا صديقا وسأعطيك أجرة سخية؟

كان عماد مطيعا وخدوما خاصة عندما تستنجد به لهيب وزبونها يمر بمحنة الانتصاب التي أصبحت شائعة حتى لدى الشباب لازدحام الأفكار وتضاربها في عقولهم وتشتت تفكيرهم.

- هل تريدين وصل الشراء؟

قال لها وهو يعطيها شريط الحبوب الزرقاء التي تعيد الميت إلى الحياة.

- لا شكرا أنا مسرورة جدا منك.

كان أبو زيدون يجلس في الصالة يسمع حوارهما، فأصر أن يدخل عماد ليشاركهما جلستهما على الرغم من تأفف لهيب.

جلس على استحياء في مقعد منزوٍ ينظر إلى ميز الزبون العامر بأنواع المزة "الجاجيك" و"البغدادية" و"الجبس" و"الكرزات" وينتصب في الوسط بطل الويسكي الشيفاز وبجانبه الثلج و"الصودة" بالليمون وساجدة عبيد تصدح بأغاني السكارى الخالدة والتي تفضلها جميع العاهرات للرقص المغري.

- هل أكملت دراستك؟

سأل أبو زيدون وهو يرتشف من "البيك" الذي أعدته له لهيب وهي تجلس بجانبه تمد يدها بين الحين والآخر لتتأكد من أن مفعول "الفياكرا" بدأ يعمل.

- تخرجت من كلية الطب البيطري بتقدير عالٍ ولكنه علم لا ينفع للحصول على وظيفة هنا فأنت تعلم كيف تسير الأمور. أنا أقترح أن نضع لوحة كبيرة في مدخل الكلية "اللهم أني أعوذ بك من علم لا ينفع".

غص أبو زيدون بالضحك وملأت قهقهته أرجاء الشقة. كان الشراب قد أحاله إلى شخص يضحك لأتفه الأسباب وبلا أسباب في بعض الأحيان.

أراد عماد استغلال هذه الفرصة ليقدم للثقيل "أبو زيدون" سيرته الذاتية لعله يظفر بوظيفة ما، لكن لهيب كانت تنافسه فهي تنتمي للطبقة الكادحة مثله تماما، الاختلاف فقط في وسيلة الرزق.

أعطته قطعة من الجبس وأخذت دور المسكينة المتباكية وهي تشرح له عن معاناتها في هذه المهنة والصعوبات التي تواجهها وأنها ترغب في توبة نصوح لا عودة فيها وأن تحج البيت لتكفر عن ذنوبها وتفتح بيت دعارة. عفوا أقصد مركز مساج تديره هي فترتاح من تعب العهر للتحول إلى "كوادة"؛ فمراكز المساج لدينا ليس للتدليك وإزالة التشنج بل هي واجهة لأوكار الدعارة وتجارة الرقيق الأبيض.

لم تفلح إغراءاتها بقدر ما نجحت "قفشات" عماد في استمالة قلب الباشا ودخل في حوارات ساخرة وهزلية في ظاهرها وفي باطنها كانت تكمن الحقيقة. كان يصف الحكومة والأحزاب الحاكمة بدقة متناهية ومن قلب الحدث فهم مرتبطون بسلسلة إذا انكشفت إحدى حلقاتها ستنكشف باقي الحلقات تباعا إلا إذا قطعت السلسة.

- كيف تقطع السلسلة، أستاذ؟

- بقتل أحدهم فينفرط عقد السلسلة المكشوفة وينقطع الاتصال بباقي السلسة لكن لا تشغل بالك أنت بهذه الأمور الكبيرة ودعني أدلك على الكلمة السحرية التي يبحث عنها المسؤولون في السير الذاتية.

- عجل بها فهي جل ما أحتاج.

- المتنفذون لا يحتاجون إلى سيرة ذاتية تحتوي على شهادة عالية أو خبرة عملية كبيرة فهذه الأمور تهدد مراكزهم التي حصلوا عليها بصفقات

سياسية وليس عن طريق الكفاءة لذلك هم يبحثون عن الطاعة... الطاعة العمياء فقط. الذكاء هو ليس أن تأخذ درجة عالية في الرياضيات ولكن أن تعرف كيف تقرأ المرحلة وتتكيف معها.

تدخلت لهيب لتحافظ على زبونها من أن يخطفه منها سائقها فجرت أبو زيدون من قميصه كما يجر البغل وأخذته إلى الفراش بعد أن تأكدت من وجود حركة من أثر الحبة التي تناولها.

- شكرا جزيلا على المحفظة والدواء... أغلق الباب وراءك...

وبدأت أسمع صراخها وتنهداتها الكاذبة، كانت ممثلة بارعة أجبرتها الحياة أن تكون بارعة وإلا فقدت مهنتها وأصبحت عرضة لكلاب الشارع تنهش لحمها، حتى إنها أزاحت "عماد" من طريقها قبل أن يسلمه السيرة الذاتية فيجره الحديث حتى ينقضي الليل ويفشل البرنامج الذي أعدته لإرضاء زبونها، فإذا سارت الأمور على ما يرام فقد تقنعه بافتتاح مركز للمساج في "الكرادة" أو "المنصور" وسط بغداد، تشغل فيه الطاقات الشابة أو قد يرتفع سقف المطالب فتصبح عشيقة ثم زوجة حتى وإن كانت على ضرتين وفي أضعف الإيمان تكسبه زبونا ثقيلا دائما ما يتردد عليها.

لكن كلماته السكرانة ظلت تدق في رأس عماد الطبول وانتقلت تدقها في عقولنا عندما روى لنا قصته مع لهيب والزبون الثقيل.

نحن في دولة تبالغ في احترام الجنس وحقوق الحيوان... نعم، حقوق الحيوان، هذا حقيقي فنحن نمنح كامل الحقوق ل "أبو صابر" وهو اسم الحمار في لغة الشارع، حتى إنها عبدت الطريق لهم ليتسنموا أرفع المناصب المرموقة في الدولة.

بعض الأحيان نتهامس فيما بيننا عندما يمر من أمامنا موكب مهيب لمسؤول بارز مع رتل من الحمايات "والله إن للحمير حظوظا" مغيرين المثل الأصلي الذي يقول "إن للكلاب حظوظا."

في أغلب الأوقات كنا نترجم أوجاعنا إلى نكتة أو قفشة.

مرحبا بكم في العراق أرض ما بين النهرين كل القوانين مختلفة فكأنما نحن نعيش على كوكب وباقي الناس يعيشون على كوكب آخر.

أم ازاد لجأت إلى العرافات والسحر أخيرا لحلحلة ملف تعيين ابنها فآخر العلاج الكي. العرافة " أم دموع" أخبرتها أن المشكلة بل إن كل المشكلة تكمن في لون رابطة العنق التي أرتديها في مقابلات العمل. اللون لم يكن ذا طالع جيد، بل كان يجلب النحس...

أصحاب العمل في العشرين مقابلة التي أتممتها للحصول على العمل كانوا يقولون لي: "سنتصل بك لاحقا"، ولكنهم لا يتصلون. كنت أعتقد أن المشكلة في هاتفي النقال ولكن إياد صديقي أخبرني أن هذه العبارة هي طريقة مؤدبة للرفض.

في المقابلة الواحدة والعشرين اشترت لي أمي بدراهمها المتبقية من ميراث أبي بدلة فاخرة ورابطة عنق لونها "شذرماوي" لا يخالطها الحظ

العاثر، ثم عززته بحجاب فيه طلاسم مضادة للعين والسحر والطالع السيئ.

المقابلة الواحدة والعشرون كانت مختلفة وغيرت حياتي إلى الأبد... وأخيرا ابتسم لي الحظ وحصلت على الوظيفة ولم يقل لي أحد "سنتصل بك لاحقا"، بل قالوا لي "إن هذا المنصب دائما ما يكون شاغرا" الموظف السابق الذي كان يشغل المنصب ذبح على طريق "المحمودية"، أما الموظف الأسبق فقد اغتاله قناص خلسة وهو يمارس عمله في إحدى الزيارات الميدانية.

صحيح أن الحظ لم يبتسم لي ابتسامة عريضة لكنه على الأقل ابتسم بعد دهرٍ من العبوس.

حصلت على وظيفة مترجم في قاعدة الصقر العسكرية التابعة للجيش الأمريكي في العراق. لم تكن وظيفة جيدة، بل لم تكن وظيفة آمنة أصلا فقد كان عملا محفوفا بالمخاطر.

الوضع الأمني في العراق في تدهور مستمر والقوات الأمريكية ومن معها كانت مستهدفة دائما ولكن كانت خياراتي قليلة إما مترجم أو مترجم فهذه هي الوظيفة الوحيدة التي حصلت عليها وهي أكيد أفضل من بائع الشاي على الأقل من ناحية المردود المادي.

العيش في المدرعة العسكرية أغلب ساعات النهار والليل ليس بالأمر الهين... صفائح معدنية سميكة مغلقة النوافذ بإحكام ومظلمة يسكن فيها أربعة أو خمسة أشخاص. يأكلون فيها وينامون فيها حتى إنهم يطلقون الريح فيها.

وجبة الطعام تسمى "الام آر آي" وهي عبارة عن طعام جاف ليس له أي طعم أو رائحة ... لكي أكون أدق أكثر إنه لا يمكن اعتباره طعاما بشريا بالمواصفات العراقية فلو أن "الكنة" وهي زوجة الابن في البيت أعدت طعاما لعمتها -أم زوجها- يشبه وجبة "الام آر آي" لطلبت من ابنها أن يطلق زوجته وتحقق المثل الذي يقول "لو رضت العمة على الكنة لدخل إبليس الجنة".

على أي حال فإن وجبات الجيش لها فوائد فهي لا تساعد على تكوين الغازات كما نشك أنها تسبب في تقليل فعالياتنا الجنسية. فقد أقسم "مهند" وهو مترجم يعمل معي بأغلظ الأيمان أن الماسونية العالمية تضع مادة " الكافور" في الطعام والماء لتصيبنا بالعجز الجنسي وبالتالي يقل تناسلنا وتكاثرنا وأعدادنا.

واجباتنا تتلخص في مراقبة وتعقب أهداف معينة في الصحراء ورصد أي تحركات للمجاميع المسلحة. قد تستغرق مهمتنا بضع ساعات أو عدة أيام حسب طبيعة المهمة.

فريقي كان يتكون من الرقيب درو وهو مسؤول المدرعة "ارمورد" المباشر والجندي "ديسمند" وبعض الجنود الآخرين بالإضافة إلى السائق.

كنت أرى "ديسمند" أكثر مما أرى عائلتي، نتكلم في كل المواضيع كي نكسر ساعات الملل الطويلة، فهو أصغر مني بربيعين وولد وترعرع في ولاية صغيرة في شمال أمريكا تسمى كونيتيكت من أب أيرلندي وأم مصرية، احتفل الشهر الماضي بعيد ميلاده الثاني والعشرين. والداه كانا قلقين عليه

لأنه لم يرتبط بفتاة حتى الآن، كانا يعتقدان أنه شاذ لكنه لم يكن كذلك فكل ما في الأمر أنه لم يجد الفتاة المناسبة بعد.

كان يتلفظ ببعض الكلمات العربية مكونا منها جملا بسيطة. بعض الأحيان أحتاج أن أفهم المعنى العام للجملة كي أفهم بعض الكلمات التي ينطقها حتى عندما يتكلم بلغته الأم الإنكليزية. لقد كان ألثغ يقلب "السين" إلى "ثاء". في كل المواقف المرة والحلوة كان بجانبي، كان صديقي المقرب وخازن أسراري.

- الهدف الذي نطارده اليوم شخصية خطرة لم نفلح بالقبض عليه منذ فترة طويلة. قواتنا المشتركة كانت قريبة جدا من الإمساك به ولكنه كان يهرب منا بأعجوبة. جميع قواعدنا العسكرية لديها أوامر بالقبض على هذا الشخص.

قال الرقيب درو ومرر إلي سجلًّا فيه كل المعلومات التي تم جمعها عن صاحبنا المطارد.

المعلومات متضاربة حوله وإفادات الشهود مبهمة ومتناقضة بعضهم يصفه بالمجرم والارهابي والبعض الآخر يصفه بالمقاوم البطل.

اختلطت الإشاعات مع الحقيقة: "أبو صهيب" يقول إنه ساحر، ويؤكد أنه شاهده يضرب مدرعة أمريكية بوميض من الضوء نزل من السماء فأحالها إلى رماد، و"أم عمار" كانت تحلف أنه يسيطر على الشياطين والجن.

لقد هرب من قبضتنا عدة مرات بطريقة مريبة، بالإضافة إلى ذلك فإن اسمه اقترن بعدة عمليات ضد الجيش العراقي والأمريكي. ولدينا

معلومات لم نتثبت من صحتها أن له يدا بطريقة ما في إصابة الجنود بأمراض نفسية غريبة.

- ما هو اسمه؟

سألني "ديسمند" وهو يختلس النظر إلى السجل في يدي. كان الفضول يقتله لمعرفة أسرار تلك الشخصية التي يكتنفها الغموض.

- السكان المحليون يطلقون عليه اسم "سيد الرمال المتحركة."

قال الرقيب درو وهو يتابع جهاز المراقبة في المدرعة.

الرقيب كان مربوعا، آثار التدريب والانضباط العسكري بادية عليه. أحسست من طريقة كلامه أنه يولي هذا الهدف أهمية مضاعفة. يعتقد أنهم أسموه بهذا الاسم لأنه يظهر فجأة ويختفي فجأة مثل الكثبان الرملية المتحركة. يختفي مثل السراب ويعاود الظهور من جديد.

- ولكني واثق أننا سنمسك به يوما وآمل أن يكون هذا اليوم هو اليوم.

قال الرقيب درو بحماس ليزيل الخوف عن نفسه وعن جنوده.

بعد سويعات قليلة جاءنا نداء من القاعدة المركزية أنه تم تحديد مكان وجود الهدف وعلى كل القوات التوجه إلى المكان للإمساك به.

- لقد وقع في أيدينا لن يفلت هذه المرة.

الكل أعد عدته كما يستل الفارس المغوار سيفه من غمده. التعليمات أتت أن نلبس الأقنعة المضادة للغازات السامة والكيمياوية فقد كانوا على ما يبدو يتوقعون استخدام أسلحة غير تقليدية.

لم يكن مسموح لي بالمشاركة في القتال. بينما أنا أنتظر في المدرعة كانت القوات المشتركة تشتبك مع مجاميع مسلحة تابعة للطريدة.

القتال كان شديدا استخدمت فيه كل أنواع الأسلحة الخفيفة والمتوسطة وحتى المحرمة دوليا.

كنت أشاهد قذائف "الار بي جي سفن" ترد على البيوت التي تصدر منها إطلاقات نار فتدكها دكا.

كانت الخسائر كبيرة في صفوف الجيش العراقي والأمريكي وأنصار سيد الرمال المتحركة وحتى من الأبرياء الذين كان كل ذنبهم أنهم جاوروا أوكار المجاميع المسلحة.

قتل وأصيب العديد حتى الرقيب درو أصيب في كتفه ولكن الخبر الأهم هو أننا ألقينا القبض على الطريدة.

لم يكن شكله طبيعيا بل في الحقيقة كان أثرد وقصيرًا. به آثار جروح في وجهه ولديه أخدود بين أسنانه الأمامية. جلس مكبلا أمامي، نظراته تنذر بشر مستطير. لم تربكني هيئته ولا نظراته المريبة بل أرعبني الصوت الذي كان يصدره وهو يشبه الأزيز، أو صوت أحد أنواع الطيور، أو ربما صوت إحدى الحشرات لا أعرف بالضبط لكنه كان صوتا مزعجا.

- وأخيرا وقعت في قبضتنا، أيها الوغد. ضع كل أغراضك هنا.

قال الجندي "مايلز" وهو أحد المسؤولين عن السجن في قاعدة الصقر العسكرية وأنا أترجم الكلام بينهما كان الفضول يدفعني لمعرفة المزيد عن هذه الشخصية الغامضة. عيناي تفتشانه من الأعلى إلى الأسفل مثل الماسح الضوئي.

أخرج من جيبه قطعا معدنية وقلما وقصاصات ورق صغيرة ووضعها على الطاولة.

- هل تمزح معي؟ هل هذه الخردة كل ما لديك، أيها الوضيع؟

أخرج سيد الرمال المتحركة قطعة صابون تغير لونها إلى الأسود من شدة القذارة العالقة بها ووضعها على الطاولة.

- ما هذه القذارة؟

سأله الجندي "مايلز" بأسلوب استفزازي ثم حاول أن يرميها في سلة المهملات ولكن سيد الرمال المتحركة أمسك يده.

- " تبا لك ... ما هذا؟ لقد صعقت"

قال الجندي وهو يسحب يده بسرعة متأثرا وكأن تيارا كهربائيا مر من خلاله.

سألته إذا كان بخير وهو يقسم أن كهرباء عالية الجهد تسربت إلى الأرض مرورا بجسمه محدثة ألما فضيعا.

حاولت أن أهدئ من روع الجندي وأتدارك الموقف.

- ربما هي الكهرباء الساكنة.

- نعم ...نعم ... ربما...

كان سيد الرمال المتحركة يبتسم ابتسامة لم أفهم سببها، لكنها أيقظت الطفل المتسائل في داخلي والذي طالما أرهق المعلمين والمدرسين في المدرسة بأسئلته التي تتوارد مثل زخات المطر على عقله، قد تكون ابتسامة ثقة أو رضى بما قسم القدر أو حتى قد تكون إشارة منه إلى "نحن عرق واحد أما هو فغريب بيننا."

عدة أيام مضت على احتجازه في القاعدة العسكرية، الأمور لم تكن على ما يرام.

مسلسل دموي يعصف بالجنود هنا لا أحد يستطيع أن يضع له تبريرا مناسبا ومنطقيا يتوافق مع قوانين الأرض الطبيعية، لذا قررت أن أزور الرقيب درو في المستشفى لأطمئن عليه وأطلعه على آخر المستجدات.

- الأمور ليست جيدة، رقيب درو... الأمور تزداد سوء في القاعدة، رصدت ثلاث حالات انتحار لجنودنا في القاعدة في اليومين الماضيين فقط. الجندي "مايلز" كتب على المرآة كلمات بلغة ليست إنكليزية أو عربية أو أي لغة أعرفها ثم وجد مشنوقا في غرفته، الحالة نفسها حصلت مع جنديين اثنين آخرين. الرعب والخوف يدب في جميع أرجاء القاعدة.

- مايلز انتحر! مستحيل، ماذا تقول؟

تعابير الدهشة والحزن كانتا ترتسمان على تقاسيم وجه الرقيب الملقى في سرير المستشفى.

أمسك يقلّب شعر رأسه وعيناه الزرقاوان لا ترمشان من شدة الهول وضعف الحيلة.

- عليّ أن أخرج من المستشفى وأقابل ذلك المجرم.

فعلا بعد عدة ساعات وقّع الرقيب درو تعهدا بالخروج على مسؤوليته من المستشفى ليقابل الوافد الجديد الذي أقلق بقدومه منام القادة والجنرالات في أقوى جيش في العالم عدة وعددا.

دخل الرقيب إلى زنزانة احتجاز سيد الرمال المتحركة بخطوات واثقة مقتحما خلوة الرجل وكنت أقف أنا أتبعه حتى استقريت استقررت واقفا في إحدى زوايا الغرفة.

- أريد أن أسألك سؤالا صريحا ومباشرا وأحتاج إلى إجابة واضحة منك. هل لك علاقة بالأحداث الأخيرة التي حدثت في القاعدة اليومين المنصرمين؟

- سأجيبك فقط إذا أجبتني أنت عن سؤالي. لماذا دمرتم بلدنا؟ هل وجدتم الأسلحة الخطرة التي تدعون أنها هنا.

أجاب ببرود شديد وقتَ كان جالسا على سريره ينظر إلى شيء ما في الأرض من دون أن يرفع عينيه إلى الرقيب درو.

- لكننا على الأقل خلصناكم من الدكتاتورية ... وجلبنا لكم نظاما ديمقراطيا جديدا.

- معظم الناس هنا يشككون في نواياكم بالتغيير نحو الأحسن ولا شيء ملموسا على أرض الواقع. الأمر يزداد سوءا.

وقف وتقدم خطوة نحو الرقيب فأصبحت المسافة بينهما عدة خطوات فقط.

في أثناء ترجمتي للحوار الساخن بينهما وقعت عيناي على قطعة الصابون السوداء القذرة التي رأيتها معه في التفتيش. كانت مرمية في أحد أركان الغرفة تحت السرير. كان الجراد يجتمع حولها، المنظر مثير للاشمئزاز، لكني أرجعت بصري إليهما لأركز في المحادثة وأترجمها بشكل دقيق فالوضع لا يحتمل الأخطاء.

- الديمقراطية تحتاج إلى وقت. أوروبا وأمريكا عانت فترات طويلة حتى ترسخت فيهما النظم الديمقراطية.

قال الرقيب درو وتقدم خطوتين باتجاه سيد الرمال المتحركة. لم يعد يفصل بين الاثنين سوى سنتيمترات معدودات.

نظرات الأعين بينهما كانت تنذر بحرب حامية الوطيس وتترجم حجم السخيمة بينهما.

حرس السجن وضعوا أيديهم على الزناد تحسبا لأي ردة فعل غير محسوبة.

- ما الذي يجعلك متفائلا إلى هذا الحد أن استنساخ تجربتكم قد تنجح في مجتمعنا، الأواصر المجتمعية هنا تختلف؟

النقاش كان يحتاج إلى فاصل قبل أن يتطور مثل الانشطار الذري الذي ينتج عنه الانفجار النووي فأقحمت نفسي في وسط السجال.

- غرفتك تحتاج إلى تنظيف. هناك العديد من الحشرات تتجول هنا. هل ترغب أن أستدعي المنظف؟

سؤالي كان كل قصده تحويل مجرى النقاش وفك الاشتباك الخطابي المحتدم الواقع بين الاثنين لكنه أربك سيد الرمال المتحركة وشتت تفكيره بشكل غريب فالتفت إليّ بسرعة وقال:

- لا تتعب نفسك. أنا معتاد على هذه الحشرات. أعتقد أن كل العراقيين معتادون على الجراد.

- لنعد إلى صلب الموضوع. حدثت حالات انتحار متعددة هنا. هل لك أي صلة بهذا الموضوع؟

قال الرقيب درو وقد ارتفع مستوى صوته. أكاد أرى الدخان يخرج من أذنيه.

- عقولنا لديها نظام تشغيل معقد مثل الحواسيب والأجهزة الذكية المختلفة فإذا دخل فايروس إلى هذا النظام وغير بعض الثوابت وشوه الفطرة وقتها سيتصرف العقل بجنون تصرفات لا تخضع لقوانيننا ويختل عنده التوازن. هل تؤمن بهذا الشيء؟

- بالطبع لا ... من لديه ثوابت ومعتقدات راسخة لا يمكن لأحد أن يزحزحها.

- وفقا لجوابك أنا لا أستطيع وأنا خلف القضبان أن أساعد جنودك على الانتحار. أنا رجل عاجز وأنت رجل لا تؤمن سوى بالعلم.

قال ونظر إليّ وابتسم لي تلك الابتسامة التي لم أفهم مغزاها وقدحت في مخيلتي جملة استفهامات.

ظل الرقيب يحاول أن يجد أي خيط يوصله إلى الطريقة الغامضة التي ينتحر بها جنوده ولكن دون جدوى فلا دليل مادي يملكه ويدين به صاحبنا المتمرد وهو محتجز خلف القضبان.

- دعني أرَ يدك قد أتمكن من علاجها.

قال وقد أمسك بيد الرقيب فصعقه كما فعل مع الجندي مايلز في حين صرخ الرقيب من شدة ألم الصعقة وابتعد بضع خطوات.

- دعني أعطك بعض الأعشاب سوف تعجل بشفاء يدك.

- لا أحتاج مساعدتك. سوف أحرص على أن تقضي حياتك في السجن للجرائم التي ارتكبتها.

- تذكر أنكم أنتم من عبرتم البحار إلينا. إنها وقت قيلولتي أيها السادة.

قال واستدار نحو سريره.

خرج الرقيب درو والحمم البركانية تتصبب من يافوخ رأسه، أما أنا فقد ذهبت إلى غرفتي أجتر الأحداث والحوارات التي شاهدتها.

عقلي ومنطقه لا يصدقان أن هذا الرجل يملك قوة خارقة ولكن ما تراه عيني تنسف كل قوانين المنطق وترميها عرض الحائط.

بعد فترة وجيزة جاءني ديسمند وكله لهفة وفضول لتبادل الأخبار معي. كان يقص عليّ أحداث اقتحامهم لبيت الطريدة وأنا مستلقٍ على سريري أستمع إليه.

البيت كان مظلما وفيه الكثير من الدهاليز والأنفاق ومسكونا بعشرات المسلحين والانتحارين الذين بدأوا يفجرون أنفسهم علينا الواحد تلو الآخر ولكن الرقيب درو كان مصرا على الإمساك بطريدته هذه المرة حتى حاصرناه في أحد الأنفاق فأصيب الرقيب بطلقة أطلقها سيد الرمال المتحركة عليه فأصابت كتفه ولكن جنودنا استبسلوا حتى ألقوا القبض عليه.

كنا نتوقع أن يستخدموا أسلحة غير تقليدية فوضعنا الأقنعة لكن يبدو أنهم تفاجؤوا من الكمين الذي نصبناه لهم.

كان النفق مرعبا مليئا بالجماجم والهياكل العظمية والحيوانات المتفسخة، كنت أحس بالعظام تتكسر تحت أقدامي وكذلك كنا نسحق الجراد المنتشر في كل مكان في أثناء مطاردتنا له.

- جراد... هل قلت جراد؟

قفزت من على سريري...

- نعم... مئات من الجراد يملؤ النفق...

- لا أعلم ولكن أعتقد أن هناك علاقة بين سيد الرمال المتحركة والجراد فقد رأيت بعضا منهم يتجمعون تحت سريره ويصدرون أصواتا مزعجة.

- حشرات تصدر أصواتا مزعجة؟! كلماتك تذكرني بالقصص التي كانت جدتي تحكيها لي قبل النوم عندما كنت صغيرا.

قال ديسمند ضاحكا...

- أي قصص؟

جدة ديسمند العربية الأصل كانت تقول إن العرب القدماء كانوا يؤمنون أن الشياطين والجن يدخلون داخل الحشرات وأن أصوات الحشرات هي لغة الشياطين والجن.

- هل أنت تمزح؟

لكنه كان مصرا أن الأسطورة تقول إن هناك كتاب اسمه العزيف كتبه رجل ادّعى أن الجن تلبّسه. يشرح فيه كل هذه التفاصيل، فألّفت حوله وحول صاحبه المجنون عشرات القصص الخيالية.

استرجع ديسمند قصص جدته وجميع أخبار الجن والشياطين التي سمعها،

العزيف كتب على جلد الموتى وحروفه خطت باستخدام العظام البشرية ودمهم كحبر.

- أين يمكن أن أجد النسخة الأصلية؟

النسخة الأصلية اختفت. البعض يقول احترقت والبعض الآخر يعتقد أنها دفنت في مكان ما. وبقيت النسخ المترجمة في بعض المتاحف والتي فقدت الكثير من تأثيرها بسبب الترجمة لكن صاحبي المغربي "مراد" قال لي ذات يوم أن عرافة ادعت أنها تعرف مكان النسخة الأصلية للعزيف.

(٢)

شيختنا الفاتنة رواسي

فتحت حاسوبي المحمول المدجج ببرامج النفوذ إلى الشبكة العنكبوتية والسيد "جوجل" وبدأت أجمع كل المعلومات الممكنة عن كتاب العزيف والشيخة المغربية التي اتضح لي أنها عراقية، ولدت وعاشت في العراق ثم هربت إلى المغرب في ظروف غامضة. اسمها رواسي وتغير مكانها باستمرار لسبب لا يعلمه أحد وكأن شبحا يطاردها.

في أثناء البحث بدأت تتكون لدي قناعة بأن كتاب العزيف هذا قد يرشدنا إلى حل يوقف تأثير سيد الرمال المتحركة.

اليد العليا اليوم للأفكار والكلمات والكتب فقواعد اللعبة تغيرت ولم يعد السلاح التقليدي الفتاك فتاكا بعد أن أصبحت القدرة على السيطرة على العقول وتوجيهها هو السلاح الفعال والمطروح في زمن صراع الأفكار.

طرحت فكرة البحث عن كتاب العزيف على الرقيب درو الذي كان متعبا ويتعرق ووجهه شديد الصفرة.

- هل أنت على ما يرام، أيها الرقيب؟

لم يكن سؤالا بالمعنى الحرفي للسؤال بقدر ما كان تأكيدا لما رأيته بأنه ليس على ما يرام.

- أنا مرهق جدا وأحتاج إلى الراحة... يمكنك مناقشة الموضوع مع الضابط ابرا وسألحق بكما بعد أن أستعيد عافيتي.

لم يكن مجديا نقاشي مع الرقيب فهو في وضع صحي متردٍّ.

ذهبت مع ديسمند إلى مكتب الضابط ابرا، هو دبلوماسي ومفاوض من الطراز الأول لكن شخصيته محيرة فهي قوية ولينة في الوقت نفسه كانوا يسمونه "الذئب".

كان المسؤول المباشر عن قاعدة الصقر العسكرية والتي تقع غرب العراق وتعالج العمليات العسكرية في الصحراء الغربية بالتعاون مع الجيش العراقي الذي ما يزال فتيا مثل طفل يخطو خطواته الأولى وكان اتصاله بمركز القيادة الأمريكية في بغداد.

طلبنا من الضابط أن يمنحنا رخصة مقابلة الشيخة رواسي في المغرب. في بادئ الأمر، تعجب من القصة فهو لا يؤمن بالماورائيات ولكننا شرحنا له التفاصيل وأننا نحتاج إلى شخص يفهم طريدتنا ليوضح لنا قوته ونقاط ضعفه وأخيرا تفهم الموقف وتفاعل مع طلبنا حتى إنه قرر الذهاب معنا.

- أعتقد أنه حان الوقت لنحزم أمتعتنا ونطير إلى المغرب.

قال ديسمند بعد أن خرجنا من مكتب الضابط ابرا وبدأنا نحضر خطة العمل للحصول على معلومات عن مكان الشيخة.

- يجب أن نرتب الأمور مع صديقك مراد. أتمنى أن تكون سفرة موفقة وتؤتي أكلها.

قلت لديسمند الذي أيّد كلامي ولكنه كان يسأل عن سبب تسمية رواسي بلقب الشيخة.

الشيخة لقب يطلق على المرأة العالمة في الدين أو الكبيرة في العمر أو العرافة والتي تعمل في السحر وتحضير الأرواح والشياطين. وعلى الرجل شيخ. كانت رواسي تمتهن السحر وتدعي أنها تعرف مكان العزيف.

لم أكن أعلم أن المغرب بهذا السحر الخلاب فالقزع في السماء يداعب مياه البحر في الأفق والأفانين متدلية في مروجها الخضراء. نقطة بارزة في الخارطة تمثل التقاء الحضارات، العربية بالأمازيغية والأوربية بالأفريقية. صديقنا مراد كان دليلنا هناك. أخبرنا أن رواسي تسكن في منطقة صغيرة تسمى "شفشاون" التي تعني "القرون" أي أعالي الجبال والسكان يطلقون عليها "اللؤلؤة الزرقاء". المدينة طبيعتها خلابة والجبال تعانق الغيوم. أهل هذه المدينة بسطاء ومبتسمون دائما، لا يستخدمون التكنولوجيا الحديثة إلا للضرورة وكأن لسان حالهم يقول "لنترك المواد المصنعة لأهلها ونتمتع بما أعطانا الله من طبيعة".

مراد كان يجري اتصالات مكثفة للحصول على موعد مع الشيخة إلا أنه لم يحصل على المقابلة إلا بعد يومين بسبب سفرها خارج البلدة.

- سنقابلها يوم الخميس مساء بعد أن تعود إلى شفشاون.

قال مراد وهو يصحبنا إلى مطعم "سيدي علي بن راشد". أنا جربت أكلة "طجين برقوق" وهي قطع لحم وبصل وتوابل مع حبات البرقوق المعسل وتطبخ في الطاجن، أما ديسمند فقد اختار طبق "البيصارة" وهي مقاربة للحمص بطحينة لدينا.

الضابط "ابرا" تلذذ بأكلة "البسطيلة" وهي أكلة أمازيغية، كل واحد منا كان يدعي أنه قد حصل على الطبق الأشهى والألذ ولا نعرف من كان منا صادقا.

عند المساء جلسنا حول النار بعضنا يحتسي الشاي الأخضر والبعض الآخر قرر المجازفة بتجربة شرب عصير الزعزع وهو كوكتيل الفواكه مع المكسرات والمهلبية.

هدوء الليل وجمال الطبيعة واكتمال البدر شجعنا على تجاذب أطراف الحديث فمرة يصبح الحديث عربيا فصيحا حين أتكلم أنا مع مراد فلا نملك لغة تفاهم غير اللغة الفصحى فهو لا يفهمني عندما أتكلم اللهجة العراقية وكذلك أنا لا أفهمه عندما يتكلم المغربية الدارجة ثم يتحول الحديث إفرنجيا عندما نتكلم الإنكليزية مع ديسمند والضابط ابرا.

اللهجة المغربية كانت أصعب مما أتصور. في اليوم الأول تعلمت " قاسحة عليا بالزف" و"وش بغيتي نذير" لكن الناس هنا يضحكون عندما ألفظ هذه العبارات. أعتقد أني ألفظها بشكل خطأ.

- يا صديقي المغرب قمة في الجمال...

قلت لمراد وأنا أعبر عن تجربتي القصيرة في هذا البلد.

- إذا كانت المغرب جميلة كما تقولون لماذا تخاف الزوجات إرسال أزواجهن إلى هنا؟

- أكيد لأن نساء المغرب ساحرات...

- تقصد يعملن السحر للرجال!

- أقصد فاتنات...

ضحكنا لأنه كان يقصد الشائعة التي تتحدث عن انتشار السحر بين النساء المغربيات وكنت أنا أقصد جمالهن الأخاذ.

- كيف بدأت قصتك مع رواسي؟

سألت مراد فتوقف عن الكلام وعاد ليسند ظهره على المقعد وكأن سؤالي سلط الضوء على الجانب الذي يخفيه مراد من حياته.

في أول يوم له في الجامعة كان مراد يجلس خجلا خائفا في الصف الأول من القاعة ينتظر أن يدخل البروفسور ليعطيه أول دروس الهندسة المدنية لكن ما حدث أن من دخل إلى القاعة فتاة كان يراها جميلة جدا، طلبت منه أن يعطيها مقعده، كان يظن جميع من في القاعة أنها البروفسورة لكن تبين أنها مجرد طالبة في المرحلة الثانية اتفقت مع زميلاتها أن تعمل مقلبا بطلاب المرحلة الأولى وتدخل إلى القاعة على أساس أنها البروفسورة وتأخذ المقعد وتهرب فامتلأت القاعة بضحكات وصفير الطلاب الجدد والمخضرمين الذين يتابعون الموقف من نوافذ القاعة وكان مراد واقفا مذهولا ومحرجا فهو لم يكن يعلم أن " تودرت" نجحت في أن تأسر شغاف قلبه من الموقف الأول... أقصد من المقلب الأول فالحب قد يأتي مع أول مقلب.

ركب الباص عائدا إلى منزله بعد هول أول يوم له في كلية الهندسة حتى وجدها تجلس في الباص متبسمة لرؤيته، جلس بجانبها فدفعت الأجرة عنه وقالت "أنا آسفة على موقف اليوم ولكنه مقلب يتكرر كل عام وهذا العام هو عامكم" قبل مراد اعتذارها ومن هنا بدأت القصة.

- ماذا حدث بعد ذلك؟ وما دور رواسي في الموضوع؟

كنت متشوقا لسماع تكملة القصة وترجمتها إلى صاحبيّ الأمريكيين الذين كانوا مستمتعين بالأجواء والقصة والزعزع كنت أرى هذا في ملامح وجههما.

تودرت اسم أمازيغي يعني الحياة وهو اسم على مسمى فقد كانت تشع بالحياة وكان مراد يراها تحفة فنية قد أجاد وأبدع من صورها على الرغم أن أصدقاءه يرونها فتاة عادية ومتوسطة الجمال.

الحب والكره متضادان يتحكمان بحواس الإنسان فيرى من يحب جميلا ومن يكره دميما.

تطور حب مراد مع تودرت ليصبح عنيفا كالبركان ونقيا مثل الماء المتدفق من الينبوع في أعالي الجبال مثل قصيدة حب كتبها عابد متصوف من دون أن ينتظر أجرا على كلماته فتخرج صادقة ودافئة مباشرة من أعماق القلب. كانا في غاية الانسجام مثل سنفونية تداعب ألحانها مشاعر المستمعين فقررا الارتباط وأخذا يحلمان بالعرس والأطفال لكن القدر كان له كلمة أخرى.

وصل مراد إلى الجزء المحزن من القصة فتقطب ما بين عينيه وتنهد، كان يسرد القصة بألم فلم تدم فرحتهما طويلا.

أصيبت تودرت بمرض خبيث نهش جسمها نهشا وقلل من فرصها في الحياة.

الطبيب صدم مراد وقال له "لن تعيش أكثر من شهرين" لكنه كتم الخبر المفزع عن الجميع وخصوصا عن محبوبته.

كان يقضي اليوم كله مع تودرت يسافران ويقضيان وقتا ممتعا فقد أخبرها أن الطبيب أكد له إيجابية النتائج وهو يكابد القهر والحزن ويفكر طوال الليل في حل يعيد الحياة لها وله. راسل جميع الأطباء والشركات المتخصصة فلم يحصل على شيء حتى أوصله أحد أصدقائه إلى رواسي.

- لقد كانت الحل السحري...

لم يكن حلا مثاليا ولكنه كان أفضل ما هو متوفر. طلب مراد من أهلها أن يتزوج تودرت وبعد فترة من الزواج كانت هي في قمة السعادة جاءت الشيخة إلى منزل مراد بعد الاتفاق معه، كانت تمتلك قدرة خارقة على تجميد الأشياء فجمدتها. لم يكن لدى مراد أي حل ثاني، على أمل أن يجدوا حلا لهذا المرض في يوم من الأيام.

- لا أعرف كيف فعلت ذلك؟ وما هي المادة التي استخدمتها؟ ولكنها جمدتها بالفعل.

أخذنا معه إلى غرفته كانت تودرت متجمدة بلا حراك في صندوق زجاجي. كل يوم كان يتناول الفطور بجانبها ويقضي وقتا ممتعا معها يقص لها الأحداث التي تصادفه.

- أهلي يعتقدون أني مجنون ويريدون أن يزوجوني لأخرج من عنق الزجاجة.

قال مراد وهو يضحك من الوجع الذي يعانيه والشوق إليها يمزقه. أهله لا يستطيعون تصور حجم الحب الذي يكنه لها وأن أية امرأة تدخل في حياته ستكون ضحية وظلا لتودرت.

مع قصة مراد المشوقة والمحزنة أنهينا يومنا وخلدنا إلى النوم استعدادا لمقابلة الشيخة التي تضاعف فضولنا لمقابلتها.

منذ الطفولة كان لدي تصور أن العرافات والسحارات قبيحات ذوات أنوف وأظافر طويلة لكن رواسي غيرت هذه المفاهيم.

كانت دعجاء ممشوقة... كنخلة شامخة سقيت ماء فراتا. الشعر كان أسودَ مخصلا بخصل بنية يمتد حتى أسفل الظهر.

هي لا تحتاج إلى امتهان السحر فبمجرد أن ينظر الشخص إلى وجهها يخرج مسحورا مذهولا وينسى أصلا ما قد جاء له.

- لديكم خمس دقائق لتشرحوا مشكلتكم فكونوا موجزين، مع فائق الاعتزاز لقدومكم.

كانت الشيخة تنظر إلى الضابط ابرا بارتياب.

- لدينا قضية معقدة جدا نحتاج مساعدتك فيها. نحتاج للحصول على كتاب معين.

- أي كتاب؟

- العزيف!

قلت منتظرا ردة فعلها. خيم الصمت في المكان لوهلة...

ضحكت، كانت مستنكرة طرحنا...

- وهل تعرف عماذا تتحدث؟ هل تدرك تأثير كلمات وطلاسم كتاب العزيف؟

- لا ... لا أعرف لكنه خيط أتشبث به بعد أن تقطعت بي السبل.

- أنا أنتظر منك عرضا مغريا!

- أي مبلغ تطلبينه.

- أنت لا تفهم قوانين اللعبة. الخريطة التي معي لا تقايض بالمال. المقابلة انتهت ... سررت بمعرفتكم.

ولكن... أردت إكمال الجملة ولكن الشيخة رواسي قاطعتني " المقابلة انتهت أيها السادة".

كان أسلوبها فظًّا ونجح في استفزازي...

- تأثير سيد الرمال المتحركة تجاوز الجيش الأمريكي. البارحة فقط وجد عدة جنود عراقيين منتحرين بطريقة غامضة بالإضافة إلى الجنود هناك أطباء وأساتذة جامعات قد طالهم الانتحار. نحن في أزمة حقيقية وأنت تزايدين على الخريطة التي لديك. آسف لوقتك الثمين أعتقد أننا جئنا للشخص الخطأ.

قلت وهممت بالخروج

- "لنخرج من هنا أيها السادة فشيختنا مفلسة".

- انتظر ... هل قلت سيد الرمال المتحركة؟ ماذا تعرف أنت عن سيد الرمال المتحركة؟

كانت تتأرجح في مقعدها مرتبكة وكأنني ذكرت عزازيل أو دردائيل أمامها.

أحسست أنها بدأت تميل إلى التفاوض فسردت لها قصة القبض عليه. نحن نعتقد أنه وراء عمليات الانهيار النفسي للمقاتلين وأشخاص معينين ومن ثم انتحارهم ولكن لا نملك دليلا على ذلك.

فاجأت رواسي الجميع بأنها تعرف طريدتنا وأنها تأذت منه كثيرا... رفعت ثوبها قليلا... كانت لديها قدم صناعية.

- يا إلهي ... هل هو من فعل بك ذلك؟

- كلا... أنا الذي فعلت ذلك لكن هو الذي دفعني لفعل ذلك...

- كيف؟

كان سيد الرمال المتحركة يريد الخريطة التي توصله إلى كتاب العزيف ليستخدم الطلاسم في نشر السحر والشر في العالم ولكن رواسي رفضت وهربت من قبضته فأرسل عليها شياطينه توسوس لها كل ليلة تحثها أن تعطي الخريطة لسيدهم... في نهاية المطاف قطعت القدم التي تسير عليها كي تمنع نفسها من الاستسلام له مهما حصل.

- وأنا على استعداد أن أقطع قدمي الثانية إذا فكرت في العودة له أو تسليمه خريطة الكتاب.

كانت تروي قصتها مع شيخ الأبالسة وهي متأثرة جدا تجتر ذكريات مريرة في حياتها.

- أنا آسف لقد جعلتك تتذكرين مواقف مؤلمة.

- لا يهم...

بعدها هربت رواسي من العراق إلى المغرب متخفية بين الأقضية والقصبات ولكنها في الوقت نفسه كانت تطور مهاراتها التي ورثتها بطريقة ما. كانت تجمد الأشياء كما كانت تطير في السماء.

- ولكن أنا على يقين أنه سيجدني يوما ما.

قالت بصوت يرتجف ويملؤه الخوف.

في خضم الحوار رن الهاتف النقال للضابط ابرا...

- سيدي لا يمكن استخدام الهاتف هنا...

كان الضابط ابرا يمسك الهاتف وينظر إليَّ منتظرا الترجمة ... أشرت إليه أن يجيب خارج الغرفة.

عدت إلى رواسي بحزمة تساؤلات، هل سيقودنا هذا الكتاب إلى سلاح يقضي على شرور سيد الرمال المتحركة؟ لم يكن في جعبتها إجابة قاطعة ولكن إذا كان العزيف كتابا عاديا لماذا يلح هو للحصول عليه؟ لماذا يخاف أن يحصل غيره على الكتاب؟

وكزني ديسمند وهمس لي " اسألها هل حاولت إيجاد العزيف؟ وما علاقة سيد الرمال المتحركة بالجراد؟"

سيد الرمال المتحركة يعرف أن كتاب العزيف دفن في مكان ما في مدينة بابل القديمة لذلك هو يضع حراسة مشددة عليها منتظرا أن تأتي هي فيمسك بها ويحصل على الكتاب.

- على ماذا تتهامسان؟

قالت.

- كان يسألني، ما هي علاقته بالجراد؟

سألتها وأنا أسترق النظر إلى عينيها اللّتين تجمعان المكر والطيبة معا.

- كل الذي أعرف أن سيد الرمال المتحركة يرسل الجراد ليسيطر على الناس ولكن لا توجد دلائل مؤكدة على كلامي حتى نجد الكتاب.

قالت وهربت بعينيها بعد أن أحست أني أطاردهما.

عاد الضابط ابرا من الخارج كان مرتبكا ومذعورا، أخبرنا أن الوضع في قاعدة الصقر العسكرية في غاية الصعوبة عشرات الانتحاريين فجروا أنفسهم في القاعدة وأحدثوا دمارا رهيبا وعشرات آخرون يحاصرونها. القاعدة لن تصمد طويلا والضابط الذي كلمه لا ينصح بالعودة إليها بأي حال من الأحوال.

ترجمت هذا الكلام إلى رواسي...

- حتما بدأت قوة سيد الرمال المتحركة تزداد بشكل مطرد. يجب أن نجد الكتاب قبل أن يصل إليه.

قالت رواسي وهي تعض شفتيها.

أعتقد أنه يتوجب علينا أيضا معرفة لغة الشياطين لأن الأسطورة تقول إن اللغة الأصلية للكتاب هي لغة الشياطين.

كنت أعاني من تسارع الأحداث فلم يعد دماغي الصغير قادرا على معالجة البيانات الوافدة إليه من كل حدب وصوب كما تلتهم السيول العارمة آلاف الهكتارات من البساتين فتحيلها إلى أرض خاوية على عروشها.

في كل الأحوال لم تعد قاعدة الصقر آمنة لذلك أجرى الضابط ابرا عدة اتصالات ليؤمن لنا الطريق إلى قاعدة القيادة المركزية في بغداد.

- سيجدك سيد الرمال المتحركة عاجلا أم آجلا لماذا لا تعودين معنا لنواجه معا.

قلت لرواسي وكلي أمل أن تعود شيختنا الجميلة معنا. كانت مترددة ومذعورة من فكرة العودة إلى العراق ولكنني أقنعتها بعد أن استخدمت كل وسائل الإقناع.

(٣)

لغز الصورة

الجنرال كولين قائد القيادة المركزية في بغداد استقبلنا ورحب بنا بحرارة وطلب منا الاجتماع غدا لمناقشة تداعيات انهيار قاعدة الصقر وسيطرة سيد الرمال المتحركة عليها، الجنرال شخصية عسكرية عتيدة شارك في الحرب الأولى على العراق عام ٢٠٠٣ وحرب أفغانستان.

كان صلبا وحازما وعنيفا ويحب اتخاذ القرار وعدم التراجع عنه حتى لو تبين له فيما بعد أنه على خطأ. الجنود هنا يلقبونه ب "البلدوزر".

- أنتم متعبون الآن دعوني أوصلكم إلى غرفكم لتأخذوا قسطًا من الراحة قبل الاجتماع.

قال وهو يسير معنا للممر المؤدي إلى غرف الاستراحة والمنام.

في هذه اللحظات رن هاتفي النقال فأبطأت خطواتي عن المجموعة وأجبت

- " الو ... الو..."

كان صوت الرقيب درو متعبا جدا...

- لن أستطيع التحمل أكثر ازاد ... إنني أنهار ... الأصوات باتت تسيطر على عقلي ... لم أعد أميّز بين الوهم والحقيقة ... صوت أمي ينادي ويقول لي اكسر القيود ودع الروح تهرب من سجنها...

كان منهارا بشكل كامل فهو منذ ثلاث ليالٍ متواصلة لم يذق طعم النوم ... جسمه أصبح ضعيفا وهزيلا فالإصابة التي في كتفه تحولت إلى تعفن وقيح مقزز بدأ يسري في كامل يده اليسرى.

- الأصوات اللعينة تحثني على قتل الآخرين ولكني لن أدعهم يصلون إلى ما يريدون سوف أقتل نفسي وأرتاح من هذه الكوابيس المريعة... لا تدع أحدا يأتي إلى قاعدة الصقر ... حذار أن تأتي هنا يا ازاد فالمكان مليء بالأشباح. سيد الرمال المتحركة أسس مملكته هنا.

- رقيب درو... أيها الرقيب ... الو ...

لم يجبني وأغلق الخط. حاولت الاتصال به عدة مرات لكن دون جدوى. رميت الهاتف النقال من يدي وجلست في الممر.

تذكرت موقف الرقيب عندما جئت للمرة الأولى إلى المعسكر وكيف أنه ساعدني كثيرا. لم أكن متمكنا من اللغة الإنكليزية بعد، كنت أعاني أشد المعاناة من لهجة الأمريكان من ذوي الأصول اللاتينية "الإسبانيول" وكذلك ذوي الأصول الأفريقية لكنه وقف بجانبي حتى أتقنت اللغة ولهجاتها المتنوعة.

كنت أفرك الراح بالراح متخيلا عصر الصراعات المظلم الذي ستستقبله بلاد ما بين النهرين. كيف ستكون الحرب المقبلة؟ فلم يعد لسباق التسلح أي تأثير إذا ما تحولت الحرب داخل عقول البشر.

بينما كان عقلي يسبح في الظلمة ظهرت رواسي من بعيد "تعرج" على قدمها الاصطناعية، كانت تصارع الألم لتمشي باستقامة... كانت تلبس "دشداشة" مطرزة بتطريز مغربي باهر.

- ماذا تفعل هنا؟ آسفة للسؤال ولكن منظرك مثير للشفقة كأنك متسول يجلس على قارعة الطريق...

قالت وهي تستند على الحائط لتريح قدمها وتمسك ضحكتها بصعوبة من منظري.

- أنا ... أقصد... كنت أبحث عن الماء ... فتعبت فقررت أن أستريح هنا.

قلت مرتبكا محاولا أن أجد أي تبرير لكنها أحست بارتباكي فلم تستطع السيطرة على ضحكتها فانفجرت كأنها مقطوعة من الأوبرا الإيطالية فأنستني جزئيا الأخبار السيئة التي توافدت عليّ طوال اليوم. بكل براءة الأطفال طلبت مني الانضمام إليها في رحلة البحث عن مصدر المياه والغذاء.

- أنا أتضور جوعا. الضابط ابرا قال يوجد مطبخ صغير في نهاية هذا الممشى.

- بكل تأكيد سيدتي الجميلة.

- شكرا أيها المتسول المرهف...

- هههههههه

سبحان الذي يجعل عبده يوشك على البكاء قبل دقائق ثم ينسيه وقع الهم فتتحول آهاته إلى ضحكات تدفئ قلبه فلسان حاله يقول ﴿ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴾

- تعرف ازاد أنا أحلم بأشياء كأنها حصلت معي في الماضي...

- كيف؟ لم أفهم؟

قلت وأنا أفتش في رفوف المطبخ عن طعام أو ماء.

المطبخ كان صغيرا ويبدو أنه مهجور، طباخ أربع عيون قديم والزيت والغبار يغطيه وبضع رفوف هنا ومثلهن في الجهة المقابلة حيث وقفت تفتش رواسي.

كانت تصف لي أحلامها وكأنها متزوجة ولديها طفل صغير بغاية الروعة... كانت تصفه بدقة متناهية كأنه أمامها... لديه غمازة في خده الأيمن وابتسامة تأسر القلب ويدان سمينتان يغوص اللحم فيهما كما أن لديه وشما على ساقه.

- لقد وجدت معكرونة...

قالت وهي تلوح بكيس المعكرونة الذي يبدو أن الدهر أكل عليها وشرب.

- بصراحة أنا لا أحب المعكرونة... بصراحة أكثر أنا أكرهها.

- أنا أيضا... كما أن شكلها لا يشجع أبدا.

قالت وهي تضحك. لم يكن في هذا المطبخ أي شيء يؤكل سوى المعكرونة.

- "انظري هناك دراجة هوائية في الزاوية".

قلت وأنا أشير إلى إحدى زوايا المطبخ.

- "هل تفكرين فيما أفكر؟ يوجد مطعم وسط بغداد يبيع فلافل لا تقاوم... نستطيع أن نستعير وسيلة النقل هذه وأنا لدي ورقة حمراء فئة خمسة وعشرين ألف دينار تكفينا نأكل حتى نشبع، ماذا تقولين؟"

رواسي كانت هادئة لكنها جريئة وتعشق المغامرات وعلى ما يبدو أنى بدأت أعشق جنونها.

- "فلافل ... من دون أن تسأل".

قالت.

كانت قيادتي للدراجة متعرجة وسيئة للغاية لسببين، الأول أنني لم أقد دراجة منذ أكثر من عشر سنوات والثاني أن حسناء تجلس خلفي وتمسك بي بقوة تكاد تكسر أضلاعي من شدة خوفها لرعونة قيادتي.

كنت أحس بدفء أنفاسها ودقات قلبها المتسارعة والخائفة.

- أنا محترف قيادة دراجات وقد حصلت على الكثير من الجوائز...

قلت محاولا استفزازها...

- حقا... متسول وبطل العالم بالدرجات الهوائية.

قالت وهي تسخر من كلامي.

- كلا... أنا أمزح فأنا أسوأ قائد دراجة في العالم ولكن كوني واثقة بأني سأوصلك بأقل الخسائر.

- يا إلهي أنت مجنون ... عدني ألا تدعني أسقط.

قالت وهي تغمض عينيها...

- أعدك أن أحميك ما دمت حيا.

قلت وأنا أقصد كلامي. لأول مرة أشعر أني يجب أن أعيش من أجل شيء ما، أن لدي رسالة أو مهمة يجب أن أؤديها. من تلك اللحظة شعرت أنى أستطيع أن أحارب العالم من أجلها. قد لا أنتصر ولكن يكفيني شرف المحاولة فالأمر يستحق.

- شكرا ازاد...

قالت وقد بدأت دقات قلبها تعود طبيعية ومطمئنة.

رواسي بعد الحادثة لم تعد تتذكر شيئا حتى الشوارع التي عاشت فيها قد نسيت ملامحها وتلاشت من مخيلتها الذكريات بحلوها ومرها.

- "أنا دليلك السياحي سيدتي... هنا بغداد... هنا خلقت أول لغة وكتبت أول ملحمة شعرية... هنا سن أول قانون... وهنا نظمت أول خوارزمية. من كان يعشق التاريخ والحضارة لا بد أن يحب هذه الأرض... إنها جمجمة الحضارة... مرحبا بك في أرض ما بين النهرين".

كنا نسير بالدراجة في شارع "أبا النواس" وسط بغداد وعلى ضفاف نهر دجلة حيث تنتشر المطاعم العراقية وخصوصا تلك التي تشوي السمك بالطريقة البغدادية التي تسمى "المسكوف".

- أنا أحب بغداد ... أنا أحب التاريخ... أنا أحبك ... أقصد لا أحبك ... عفوا ... أحب... أحب الفلافل...

تلعثمت وارتبكت فحاولت تدارك الموضوع سريعا وقد رمقتني بعيون باسمة.

- انظري هذا تمثال شهريار وشهرزاد الشخصيات الرئيسية في قصص ألف ليلة وليلة حيث كانت شهرزاد تروي لشهريار كل ليلة قصة جديدة

مثل قصة السندباد والبساط الطائر وعلي بابا والأربعين حرامي وعلاء الدين والمصباح السحري... كل شبر في هذه الأرض له قصة وتاريخ.

بعد دقائق وصلنا إلى مطعم أبو سمير الشعبي كان مكتظا بالزبائن. كان الحاج "أبو سمير" وابنه "سمير" يقدمان في مطعمهما المتواضع "الفلافل" و"الكبدة" و"المقبلات" و"الكبة" و" البورك" مع الصمون الحار بالسمسم.

اختارت رواسي مكانا منعزلا في إحدى الزوايا وعيناها اللازورديتان تأخذان مسحا شاملا للمنطقة.

يعمل المطعم بنظام "اخدم نفسك بنفسك".

- أنا سأطلب لفتين من الفلافل الحارة، ماذا عنك؟

- لا أنا سأكتفي بواحدة...

وقفت في الطابور الطويل أمام المحاسب...

- هل لديكم فلافل بالجبن؟

قالت امرأة كبيرة ذات شعر رمادي كانت أمامي في الطابور. كانت ترتدي قبعة كبيرة من الهاواي فيها كل الأشجار والزهور وملابسها صارخة الألوان. كان طلبها غريبا مثل قبعتها وملابسها التي جمعت كل ألوان الطيف.

- كلا سيدتي لا يوجد لدينا.

قال محاسب المطعم وهو يجعد جبينه مندهشا من طلبها.

- مع الأسف... إذا أعطني جبنة بالفلافل.

- سيدتي، انظري إلى الطابور خلفك... لا يوجد لدينا أي فلافل مع الجبن.

بدأ صوت المحاسب يرتفع.

- فهمت الآن أنت تريدني أن أشتري الجبن لك لتضعه لي على الفلافل.

- يا إلهي ... سوف أعطيك لفة الفلافل افعلي بها ما تشائين... فقط أعطني ألف دينار ثمن اللفة.

كان كل من في الطابور يتذمر. كنت أسمع الرجل الذي خلفي وهو يدمدم "لقد ملأتم البلد متى سوف تنقرضون؟"

- اتفاق عادل...

قالت وبدأت تبحث عن النقود في محفظتها المليئة بالأشياء القديمة مثل صندوق العجائب.

إنها مجرد ألف دينار أي أقل من دولار واحد المبلغ لم يكن كبيرا وأنا أعاني من شدة الجوع فاقترحت عليها أن أدفع حسابها.

كانت سعيدة جدا وشاكرة لما فعلت. دفعت ثمن اللفات ووقفت أنتظر دوري في تسلم الطلب...

- شكرا لك مرة أخرى...

اقتربت المرأة الغريبة مني جدا حتى لامست قبعتها المليئة بالأشجار وجهي.

- لا شكر على واجب ... دائما ما تحدث معي وأنسى نقودي في المنزل.

قلت لها وعيني على رواسي التي نال منها الانتظار.

- هل تسمح لي أن أقدم لك أمنيتين مقابل كرمك فأنا جنية.

قالت لي والبسمة لا تفارق سنها.

ضحكت من خطابها ولكني كنت أقدر كبر سنها فجاريتها حتى يجهز الطلب.

- أنا أتكلم بمنتهى الجدية. أنا آخر جنية في العالم ولدي عدد محدود من الأمنيات وأنت تستحق اثنتين. خذ ردد هذه الكلمات واذكر أمنيتك وستتحقق. فقط تذكر أن تستخدمهما في الخير... الخير فقط.

قالت الجنية وهي تناولني قصاصة من الورق. لم يكن لدي الوقت الكافي لمزيد من الحوار معها أو حتى فتح قصاصتها فوضعتها مباشرة في جيبي وأخذت الطلب وعدت مسرعا إلى رواسي.

- لماذا تأخرت؟ سوف أموت من الجوع.

قالت رواسي معاتبة وهي تقضم أظافرها بأسنانها من شدة الجوع.

بينما كنا نأكل سردت لها قصة المرأة المسكينة التي تدعي أنها آخر جنية في العالم ثم أخرجت الورقة التي أعطتني إياها من جيبي " هاموش ماهوش بلتوش منتوش" ما هذا الهراء. أنا فقط أتمنى أن يساعدني أحد في التخلص من الكوابيس التي سوف تنهال عليّ بعد هذه الكمية من الفلافل. على الرغم أن الوجبة كنت دسمة إلى درجة أني أحسست بانتفاخ في معدتي إلا أنى عشت لحظات سعيدة.

طلبت رواسي أن نعود إلى القاعدة فذهبت أغسل يدي وأنا أدندن مع نفسي أبياتا كنت أحفظها

مايا ...

تغني وهي تحت الدش أغنية من اليونان رائعة

وتضحك دون ما سبب ... وتغضب دون ما سبب ... وترضى دون ما سبب

مايا...

لها عينان شيطانان همهما مخالفة الوصايا ....

مايا... مخربة وطيبة ...وماكرة وطاهرة

وتحلو حين ترتكب الخطايا ....

لم أستغرق سوى دقائق ولكن عندما عدت لم أجد رواسي.

صعقت وهرب الدم من وجهي "رواسي ... رواسي... أين أنت".

كل الأفكار السيئة خطرت في مخيلتي للحظات. كانت عيناي جاحظتين تفتشان في كل مكان، هل ذهبت إلى محل الملابس المجاور للمطعم؟ هل خطفتها إحدى العصابات؟ هل هربت؟ لكن ظنوني تبددت حين وجدتها متسمرة في الجهة المقابلة للمطعم.

وثَبْتُ أعبر الشارع كالمجنون "رواسي ماذا تفعلين هنا..".

- أكاد أجزم أني أتذكر هذا الشارع...

قالت وهي تفرك جبينها محاولة استحضار ذاكرتها.

- يمكننا العودة في وقت آخر لقد حل الظلام.

قلت ولكن رواسي لم تكترث لكلامي وركضت داخل الشارع.

وأنا أركض خلفها وأصرخ: "يا إلهي ... توقفي رواسي ... رواسي".

وقفت أمام بيت قديم. البوابة الرئيسية كانت مغلقة لكن رواسي قفزت السياج وكأنها طارت في السماء أما أنا فقد واجهت المصاعب حتى عبرت السياج.

كان البيت مظلما ومهجورا. استعنت بضوء الهاتف النقال لأجد الطريق إلى داخل البيت. حرب ضروس حدثت في هذا البيت. الأثاث محطم وبعض آثار الحرائق هنا وهناك. كان صوت بعض قطرات الماء الساقطة على الأرض تزعج تركيزي. يبدو أن أنبوب الماء لا يزال ينضح لسبب ما.

بينما أنا أبحث عن رواسي وقعت عيني على صورة كبيرة معلقة في وسط غرفة الضيوف.

- ما هذه الصورة أظن أنها رواسي...

قلت وأنا أمسح الغبار بيدي عنها.

رجعت خطوتين إلى الوراء كانت هي فعلا من في الصورة ولكن الذي أصابني بالذهول أن سيد الرمال المتحركة مع رواسي وبينهما طفل صغير. أحسست بالخطر يهاجمني من كل الجهات لكن كانت لي رغبة شديدة بأن أجد رواسي وآخذها معي إلى القاعدة ربما لأنها المفتاح الوحيد لهذا اللغز أو لأنني وعدتها أن أحميها وأحافظ عليها أو ربما لسبب آخر لا أعرفه.

فتحت الإطار وأخذت الصورة ووضعتها في جيبي.

- رواسي أين أنت؟ لنهرب بسرعة. المكان ليس آمنا.

قلت وأنا أفتش في غرف البيت وأصطدم كالمجنون بأثاث البيت المبعثر.

وجدتها تبحث في درج إحدى الغرف غير مكترثة لأي شيء آخر.

- ماذا تفعلين هنا؟

قلت بغضب.

- أنا متأكدة أنني كنت أعيش هنا ... وكنت أخبئ قاموسا يترجم لغة الشياطين... لا بد أنه في مكان ما هنا... قالت " هذا هو وجدته... ".

في خضم هذه الظلمة والهدوء. بدأنا نسمع أصوات الجراد. كانت أصوات مزعجة تأتي من كل مكان.

- رواسي يجب أن نهرب... صرخت على رواسي ولكنها كانت قد جلست على الكرسي متجمدة وعيناها جاحظتان...

- رواسي لا تستمعي إلى الأصوات.

كنت أناديها وهي لا تجيب والجراد يقترب من كل صوب وحدب وصوته يخترق آذاننا.

يجب أن أفكر في حل ... ازاد فكر... ازاد فكر...

أطلق العنان لروحك لكي تتخلص من سجنها...

لا عذاب هنا ولا ألم...

ألم تشتق لأمك...

هل تريد أن تسمع صوتها...

بتصرف لا إرادي وضعت يدي على أذني وأنا أصرخ: " لا تسمعي لهذه الأصوات يا رواسي... رواسي اسمعيني إنها أصوات الشياطين..".

بحثت عن قطع من القطن في الحمام وأنا أحاول: "رواسي ... لا تستسلمي أنا قادم... لا تصغي لهم..".

وجدت قطع القطن ووضعت اثنين منها في أذني ومثلهما في أذني رواسي التي تجمدت في مكانها مثل الخشبة. لم يكن لدي خيار سوى حملها على ظهري أخذت الكتاب منها وركضت بأقصى سرعتي ولم أتوقف حتى وصلت إلى باب القاعدة المركزية.

كنت منهكا وثيابي تمزقت وجرحت ساقي وكانت تنزف ولكن لم أشعر بها حتى وصلنا.

- من أنت ... ولماذا أنا هنا... استفاقت رواسي وبدأت بالصراخ.

حاولت أن أشرح لها أننا قد تعرضنا لهجوم من قبل حشرات سيد الرمال المتحركة قبل قليل محاولا تهدئتها لكنها كانت مشوشة ولا تتذكر شيئا حتى لا تتذكر اسمي، بل كانت تعتقد أني أحاول أن أخطفها. كانت تصرخ في طلب النجدة. حتى تدخّل حرس القاعدة.

- هذا شخص يريد أخذي إلى مكان مجهول... إنه يحاول اختطافي أنقذوني...

قالت رواسي وهي تبكي ومنهارة كليا وتستنجد بالحرس.

- ارفع يدك إلى الأعلى في موضع واضح للرؤية.

قال لي الحرس مصوبا السلاح باتجاهي.

وضحت للحرس أن هناك سوء تفاهم وطلبت منهم الاتصال بالضابط كولين الذي استقدمني إلى مكتبه مباشرة وأرسل رواسي إلى المشفى.

عاتبني الضابط كولين واعتبر خروجنا طيشا وتهورا. كان منفعلا جدا.

أعترف أني أخطأت ولكن طلبت من الضابط أن يؤجل النقاش إلى يوم غد. لم أكن أستطيع الوقوف على رجلي. جسمي يؤلمني بالكامل والمعالج يضع الكمادات على رجلي ليوقف النزيف.

- اذهب إلى غرفتك ولا تغادر وغدا سيكون لنا كلام.

قال الضابط كولين وخرج منزعجا.

ذهبت إلى غرفتي ورميت نفسي على السرير مرهقا...

في منتصف الليل أجبرني العطش على النهوض من سريري الدافئ بحثا عن ماء للشرب.

كانت القاعدة العسكرية تغط في السكون، أما أنا فكنت أشعر بثقل في معدتي وفي أثناء تبختري لمحت من شباك المعسكر شخصا يشوي عجلا في هذه الساعة المتأخرة.

قلت في نفسي: "ماذا يفعل هذا المجنون في هذه الساعة"، دفعتني الرغبة في تدخين سيجارة والتحدث مع هذا الشخص غريب الأطوار.

- كيف أحوال الشواء يا صاحبي؟

قلت له وأنا أدنو شيئا فشيئا من ناره ولكني لاحظت أن العجل لا تزال رجلاه تتحركان....

يا رباه... هذا ليس عجلا إنه يشبه البشر .... لا ...لا... إنه فعلا بشر يئن من أزيز النار تحته .... توقفت مفزوعا وبدأت أتراجع.

وقف الرجل وكان عملاقا وقال لي: "نعم إنه بشر نضج جلده جزاء لما فعله.... هل لديك اعتراض؟ كلكم ستحرقون بالنار... كلكم ستحرقون بالنار".

كان يصرخ ويقترب مني فركضت إلى داخل البناية.

أغلقت الباب ورائي وقلبي تسارعت دقاته.

دنوت من نافذة الغرفة، أريد أن أعرف أين ذهب هذا العملاق؟ لكني رأيت ما هو أغرب، كرات ضخمة من النار تتجه نحونا لتصطدم بالبناية فتحدث دمارا كبير في المبنى. أجزاء السقف والجدران بدأت تتهاوى وحرائق كبيرة شبت هنا وهناك.

إحدى الكرات الملتهبة كانت تتجه نحوي، حتى باتت لا تبعد سوى أمتار معدودات. أحسست أنها النهاية.

شخص أشعث الشعر مد يده وسحبني وهو يهمس في أذني: "اسمع كلامي واركض بأسرع ما تملك من قوة ولا تلتفت إلى الوراء حتى نصل إلى السرداب حيث الأمان لقد بدأ الهجوم".

- "ماذا ...اي...".

قلت... لكنه قاطعني وصرخ بوجهي:

- "اركض"

بدأت أتبع خطواته المتسارعة وأنا أسمع أصوات صراخ وتعذيب وعويل يتدفق إلى مسامعي من كل حدب وصوب .... هذا يعذب بسوط من نار.... وهذا يسقى السعير.... وخمسة جبابرة غلاظ يضعون أطفالا أحياء في

أفران كبيرة حتى تنضج جلودهم، وآخرون يحمون أسياخا ويوغلونها في عين شاب ....

وتلك المرأة من شباك المنزل أراهم يلفون الأغلال على عنقها ويحمون على وجهها قطع حديد محمرة من النار، في كل زقاق نصبت مشنقة.

منظر مروع أفقدني تركيزي وقدرتي على السير المتزن فبت أتعثر وأسقط وأنهض من جديد لأواصل الجري خلف الأشعث وفي كل مرة أتعثر فيها أرى في الأرض جثثا احترقت وتفحمت وتناثرت أشلائها وتبعثرت.

- اختبئ وراء هذه الصخرة إنه "الهفاف".

- الهفاف؟!

- إنه أخطر أنواع الشياطين يملك سوطا من نار إذا ضربك به تمزق في الحال كبدك ومت على الفور.

كنت أختلس النظر إلى ذلك المخلوق المخيف من خلف الصخرة. كان له جناحان يحملانه في السماء ووجه ممسوخ.

كان يضرب الناس بلا رحمة فيحيلهم إلى جثث هامدة.

حتى استدار إلى الجانب الثاني.

- اركض ...

صرخ بوجهي صاحب الشعر الأشعث فلبيت نداءه من شدة خوفي وقلة حيلتي.

لم أكن أعرف ماذا يحدث لكني أرى دمارا شاملا قد حل بالقاعدة.

ركضنا حتى وصلنا إلى ساحة، كان هناك العديد من الشياطين يحيطون بسيد الرمال المتحركة الذي كان يحتجز الضابط كولين في قفص ويخطب بأتباعه:

-"سوف نسيطر على العالم كله قريبا...

من يكن معنا فهو حليفنا ونمنحه الخلود والسرمدية...

ومن يكن ضدنا سوف نقضي عليه لا توجد حلول وسط إما أبيض أو أسود".

ثم أشار إلى أحد الشياطين فنفخ النار من فمه على الضابط كولين حتى حرقه حرقا وتفحمت جثته.

سيطر عليّ الغضب فحاولت أن أركض نحوه لكن الأشعث أمسك يدي وهمس "لن ينفعك هذا التصرف الطائش سوف يحرقونك كما فعلوا مع الضابط تصرف بحكمة واذهب إلى السرداب".

- لكنه أعزل... لقد قتلوا شخصا أعزل.

- انظر إلى ذلك الشيطان على يمينه إنه الجيثوم أقوى مساعدي سيد الرمال المتحركة، أما الذي على يساره فهو مسخ على هيئة ذئب. احذر من الذئب الذي يختبئ خلف الشيطان.

كان شيطانا ضخما مروعا. رأسه عبارة عن عشرين أفعى تنفخ النار فتحيل الأشياء إلى رماد في ثوان وعلى بعد عشرين مترا.

إحدى الكرات النارية أصابت الجدار الذي نستتر به فتساقطت الأحجار علينا.

تفرقنا أنا والأشعث فدخلت أنا المبنى من جديد. كان حالي يرثى له. حروق في يدي ورجلي وجروح في وجهي وظهري. غبار البناية ودخان الحرائق أحال مدى الرؤية إلى العدم.

كنت أسير وأتلمس الأشياء في الممر الرئيسي للمبنى ولكني شعرت أن أحدا يسير خلفي حتى وضع يده على كتفي فأحسست بألم حرق لم أشعر به من قبل.

كان الجيثوم يتربص بي. أدخل أحد أصابعه في دماغي فأصابني بالشلل التام باستثناء رأسي. كان الإحساس في غاية الألم.

اقتربت مني إحدى أفاعي رأسه وبدأت تلعق وجهي بلسانها وتهمس لي: "نريد منك أن توقع هذه الورقة فقط. وستحصل على الجنس والحياة السرمدية".

- أي ورقة؟

- أن تعطينا الحق في أن نجري تغييرا بسيطا جدا في دماغك...

- ماذا تقصد بتغيير بسيط جدا.

- نحذف بعض الذكريات الحزينة والمشاعر السلبية مثل الشعور بالألم ونعطيك حياة أبدية.

- أنت تحقن الحقيقة بالأباطيل مثلما يدس السم في العسل فتحاول أن تغريني بالحياة السرمدية والنساء. أنا كل أمنيتي امرأة ذكية عقلها راجح تحبني وطفلة صغيرة فيها قليل من أمها وقليل مني تعكس انصهارنا معا. ألعب معها بكل عفوية كطفل كبير متناسيا تعب اليوم في بيت صغير ودافئ.

لطمني على وجهي لطمة حبست الصوت في حنجرتي فلا ينفذ إلى الفضاء مع أنى كنت أحاول جاهدا لكي أصرخ دون جدوى. كنت أختنق...

- اهدأ.... اهدأ إنه مجرد حلم ...

كان نفس الشخص الأشعث يجلس بجانبي يحاول أن يوقظني من الكابوس المزعج ...

- من أنت؟ وكيف دخلت إلى هنا؟

قلت له مفزوعا أتلفت وأفرك عيني.

- أنا بهلول وأنا هنا أنفذ أمنيتك الأولى وهي أن أحميك من الكوابيس المزعجة... هذه كانت رغبتك وتبقى لك أمنية ثانية من الممكن أن تطلبها في أي وقت.

نظرت إلى بهلول بتمعن. كائن بين الإنس والجن قصير ذو أنف طويل وعيون بلا حاجبين لونه مائل للزرقة. لكنه أنقذني في آخر لحظة وأنا أصرخ مختنقا من الكابوس.

ذهبت إلى الحمام وغسلت وجهي. أخذت نفسا عميقا أمام المرآة، نظرت إلى نفسي في لحظة صمت بعد عصف ذهني عنيف. وأنا أراجع ما يحدث لي وأتمنى ألا يكون مشوارنا إلى بيت رواسي هو السبب.

(٤)

تدمير قاعدة الصقر العسكرية

في قاعة الاجتماع كانت هناك خرائط ووسائل إيضاح وشاشة عرض واتصالات عبر الأقمار الاصطناعية. وجوه مسفرة وأخرى منهمكة. يبدو الأمر في غاية الجدية. كان الضابط كولين يدير الجلسة...

- تفضل ازاد انضم إلينا...

قال وهو يشير بيده إلى مقعد في منتصف الطاولة، على يميني ديسمند وعلى شمالي مقعد فارغ كان مخصصا لرواسي التي رمتها الأقدار في المستشفى بلا ذاكرة على حين كان يجلس أمامي الضابط ابرا وعلى يساره كان هناك ضابطان عراقيان يحضران لأول مرة. العقيد الركن عبد الكريم والمقدم ستار لكن القاصي والداني يشعر بالفرق الشاسع بينهما كأنهما على طرفي نقيض فالقيافة العسكرية توحي أنهما تخرجا من مدرستين شديدتي التباين.

حذاء المقدم ستار عليه بعض الغبار وأحد أزرار قميصه مفتوحة، على العكس من ذلك تشعر بهيبة ووقار العقيد وهو يصغي باهتمام إلى المتكلمين ومداخلاته تنم عن ثقة بالنفس وحرفية عالية، أما المقدم فكان يركز على سيقان "أملي" الموظفة التي تجلس في المكتب المقابل. كان ظهرها ينكشف كلما تضع الفايل في الدرج العالي فيرتبك وينتصب بزاوية تسمح له برؤية

أوضح فهو يفقد تركيزه بسرعة، مرة ينزع النظارة ويلبسها ومرة يتثاءب ويحك أنفه وأخيرا أدخل المفتاح في أذنه محاولا تنظيفها.

دفعتني رغبة جامحة في أن أعرف الفرق بين المدرستين اللتين تخرجا منهما ولكن بمجرد أن احتدم النقاش وتكلما حتى حصلت على مرادي.

العقيد الركن عبد الكريم ضابط مهني تخرج من كلية الأركان وتدرج في السلك العسكري وخاض العديد من المعارك وعلى الطرف الآخر كان المقدم ستار مرشح أحد الأحزاب المتنفذة، منح الرتبة بدون تدرج بظاهرة غريبة حدثت في العراق بعد التغيير تسمى محليا ب "ضباط الدمج" أي دمج عناصر الأحزاب بالجيش.

الآن عرفت لماذا تنهار المنظومة العسكرية عند أبسط الاختبارات، ولماذا يفر الضابط من المعارك تاركا وراءه سلاحه ورتبته وجنوده ووطنه في مهب الريح.

تذكرت عبارة جميلة كان يرددها جارنا أبو حيدر:

"إذا أردت أن تدمر بلدا فضع الشخص غير المناسب في المكان غير المناسب، وإذا أردت أن تدمر جيشا فضع الضابط غير المناسب في المكان غير المناسب".

كان في مقدمة الطاولة الضابط كولين مع ضابط آخر. في الركن البعيد كان يجلس شخص لا يلبس زي الضباط بل لم يكن يلبس زي العسكر. كان مصدر إزعاج بالنسبة لي. فالمجهول دائما مقلق. كان لديه شارب مرفوع إلى الأعلى ولحية كثيفة.

- من دواعي سروري أن أقدم لكم الضابطة دورنث لتستعرض لكم الموقف العسكري للقوات المشتركة وتمركز أنصار سيد الرمال المتحركة.

قال الضابط كولين مرحبا بها

- شكرا أيها الضابط كولين... تحياتي للحاضرين...

أحدث التقارير تفيد بأن سيد الرمال المتحركة يسيطر على مساحة قطرها ٦٠ ميلا ومركزها قاعدة الصقر العسكرية ويستعد لمهاجمة قاعدة المثنى المجاورة لها. تمكن سيد الرمال المتحركة من تجنيد الكثير من عناصر شديدي الولاء له يقدر أعدادهم من ٥ إلى ١٠ آلاف والأعداد في تزايد مطّرد. أساليب هذا التنظيم ليست تقليدية ومن الصعب أن تحاربه بأسلوب تقليدي. أنصار سيد الرمال المتحركة هو تنظيم رملي يذوب بين الأهالي عند التعرض لخطر ثم ينظم نفسه سريعا من جديد.

هذا ما لدي من رصد ميداني ... شكرا لإصغائكم.

- شكرا ضابطة دورنث... أدعو الآن الخبير النفسي والمحلل الاستراتيجي بروفسور روهت للتحدث.

قال الضابط كولين وهو يشير إلى الرجل صاحب الشارب المعقوف...

- شكرا أيها الضابط كولين... مرحبا بالجميع...

ظاهرة سيد الرمال المتحركة ظاهرة خطيرة تهدد استقرار العالم كله فأنا من أصول هندية وأشعر بالخطر المحدق على أهلي في الهند من هذه الظاهرة إذا ما استفحلت ونمت مثلما تنتشر الخلايا السرطانية في الجسم.

توصل الهدف إلى تركيبة معينة مجهولة لدينا حاليا تسيطر بشكل تام على الجراد ومن ثم يتم إرسال الجراد إلى البشر للسيطرة عليهم عن طريق الأصوات والفيرومونات.

- عفوا ... ماذا تقصد بالفيرومونات؟

سأل ديسمند.

الفيرومونات مكونات تطلقها بعض الحشرات والثدييات تقوم بجذب الجنس الآخر، مثلا تقوم الأنثى بإفراز هذه الفيرومونات لجذب الذكر لكن الهدف قام بتغيير تركيب فيرومونات الجراد ليجعلها تؤثر على الإنسان وتنقل رسائل الشياطين ووسوستهم إليه.

هناك خمس مراحل يمر بها الضحية الواقع تحت تأثير لعنة سيد الرمال المتحركة...

المرحلة الأولى هي مرحلة الكوابيس وفيها يتعرض الضحية لزخم رهيب من الأحلام المزعجة، أما المرحلة الثانية ففيها يتم مسح ذاكرة الضحية استعدادا لإعادة ملئها بمعلومات جديدة وهذا ما يحدث في المرحلة الثالثة حيث يعيد سيد الرمال المتحركة ترتيب المعلومات في عقل الضحية فيستبدل مفاهيم الفكر الحر والتفكير السليم بأخرى تقود الضحية إلى الطاعة العمياء والخضوع التام لأوامره.

في المرحلتين الأخيرتين يتم وضع شفرات الكراهية والعنف بدلا من المحبة والسلام، وهنا يجب الإشارة إلى أن تسلسل المراحل ونسبة الإصابة بكل مرحلة تختلف من شخص إلى آخر وتعتمد بشكل كبير على طبيعة

الصفات الوراثية والمكتسبة التي كونت شخصية الإنسان فالشخص المكتئب تزيد الكوابيس من نوبات اكتئابه والعكس صحيح.

هذا كل ما لدي يتعلق بتأثير سيد الرمال المتحركة وآسف على الإطالة...

أكمل بروفسور روهت كلامه لكن صداه ظلّ يتردد في أروقة مخيلتي. على ما يبدو أني مصاب بالمرحلة الأولى من تلك اللّعنة ورواسي تعاني من المرحلة الثانية.

- شكرا بروفسور روهيت...

قال الضابط كولين ثم وجه السؤال إلينا: "ماذا تقولون؟"

قدمت اقتراح تعميم غطاء واقي الأذن على القوات المقاتلة التي هي في تماس مع الأعداء وبالتالي نمنع تأثير أصوات الجراد عليهم.

بينما اقترح ديسمند إمكانية استخدام بدلات التخفي والتي قامت شركتان أمريكية ويابانية بصناعتها للجيش الأمريكي بتكنولوجيا متطورة جدا، من الممكن استخدامها للوصول إلى عمق تمركز سيد الرمال المتحركة.

اعترض الضابط كولين على فكرة استخدام واقيات للأذان لأنها تعيق التفاهم ما بين الجنود كما أن قدرات سيد الرمال المتحركة في تطور كبير قد يفاجئنا يوما بإرسال حشراته إلى داخل مقر القيادة لذلك لا بد من اتخاذ موقف سريع وطلب بعض الوقت للتشاور مع الجهات ذات العلاقة والعودة بالقرار المناسب.

وفعلا بدأ يتشاور مع مساعديه ويتلقى ويرسل اتصالات عبر الأثير. لم تكن عملية اتخاذ القرار بالأمر الهين. استغرق فيها قرابة النصف ساعة ليأتي ووجهه كظيم...

- بعد التشاور مع الحكومة العراقية والحكومة في واشنطن تقرر تدمير قاعدة الصقر العسكرية تدميرا كاملا بسرب المقاتلات (اف-١٦). يرجى من الجميع الانتظار في غرفهم حتى إشعار آخر.

- لا يمكنك القيام بذلك ... عشرات الأرواح سوف تزهق... الخسائر ستكون وخيمة... أنا أسجل اعتراضي. ممكن أن نغطي آذاننا وبالتالي نستطيع أن نقلل تأثير سيد الرمال المتحركة لقد جربنا هذا الحل فعليا.

قلت وأنا ممتعض من القرار. كنت أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك حل بديل... حل أقل دموية.

- وهل تضمن سلامة جنودنا أنت؟

قال الضابط كولين.

- أنا أسجل اعتراضي أيضا... لا يمكنك قتل جنودنا المتبقين في القاعدة وتنصب محرقة للجميع...

قال ضابط ابرا وبدا مستاء جدا.

- القرار اتخذ من جهات عليا وواجب التنفيذ... اعتراضاتكم مرفوضة.

قال الضابط كولين بصرامة.

- الدماء لا تعالج بالدماء... والعنف لا يجلب سوى العنف... سوف يطالب أولاد الضحايا بدماء آبائهم... لا تتصرف بحماقة قد يدفع ثمنها الجميع.

قلت ونبرة صوتي لا إراديا كانت مرتفعة.

- لقد تجاوزت الحدود... أنت موقوف عن العمل ومحال إلى لجنة الانضباط ...

صرخ الضابط كولين في وجهي.

- افعل ما تريد... ستلاحقك أرواح من تنوي قتلهم...

قلت وخرجت من قاعة الاجتماعات والضابط كولين يرعد ويزمجر خلفي...

كنت أعاني من إحباط شديد وأجر قدميّ جرا. لم أعد أستطيع التفكير في الأمر وأنا عاجز عن فعل أي شيء. ظللت متوترا أمشط الغرفة ذهابا وإيابا لعدة ساعات حتى تذكرت رواسي فكانت مثل مسكن الآلام وجرعة الكوكايين التي أدمن عليها المدمنون فأخذتني خطواتي لأطمئن عليها...

- كيف حالها الآن؟

سألت الممرضة.

- هي أهدأ بكثير من ذي قبل.

طلبت من الممرضة أن أراها فابتسمت ووافقت بعد أن أخذت تصريحا من الطبيب بالزيارة.

- عشرون دقيقة فقط...

دخلت غرفتها كانت تجلس في سكينة تطالع كتابا لكنها ثارت عندما رأتني وبدأت تصرخ.

رفعت الممرضة رأسها تنظر إلي فأشرت بيدي إليها "أن الأمور تحت السيطرة". فأعطتني الفرصة في محاولة ثانية قبل أن تنهي الزيارة.

- انتظري رواسي ... سأقف قرب الباب وسأبقيه مفتوحا ... أحتاج التكلم معك بضع دقائق فقط... فقط دقائق معدودات وأعدك أني سأغادر...

قلت وأنا أقف بعيدا عنها قرب الباب. كلماتي هذه هدأت من روعها، انهارت تبكي وتقول إنها لا تتذكر حتى اسمها.

أخبرتها "نحن في حرب مع رجل يسخر الشياطين والحشرات للسيطرة على عقول الناس وأنت في المرحلة الثانية من لعنة سيد الرمال المتحركة وهو يبحث عنك وعن كتاب يسمى العزيف".

- أكاد أتذكر هذا الاسم سيد الرمال المتحركة... إنه يأتيني في كوابيسي.

قصصت عليها القصة كاملة محاولا تنشيط ذاكرتها وقد أفلحت في بعض المواضع وفشلت في بعضها الآخر. أنصتت إلي ولكن الشكوك كانت تساورها، رأيت هذا في عينيها وأنا أتأمل فيهما كل حين مثل الغواص الذي يخطف كمية من الأوكسجين من سطح البحر ثم يعاود الغطس.

- ولماذا عليّ أن أصدقك؟

- رواسي يجب عليك ذلك لأننا عملنا معا وسيد الرمال المتحركة آذاك قبل أن يؤذيني... لقد أرسل كوابيسه ليحثك على قطع قدمك...

نظرت إلى قدمها واحمرت عيناها وامتلأت بالدموع "اغتال هذا الرجل كل الذكريات إلا هذه الذكريات الأليمة التي تراودني كل ليلة".

أشارت الممرضة إليّ أن الوقت انتهى حيث بدا على رواسي الإرهاق...

- رواسي لا تظني أبدا في يوم من الأيام أنى قد أؤذيك ... لقد وعدتك أن أحميك وسأفعل مهما كان الثمن... سأتركك لترتاحي وسنكمل في وقت لاحق...

قلت وأنا أغادر غرفتها.

عدت إلى غرفتي وبدأت أقلب أوراق قاموس لغة الشياطين.

حاولت أن أترجم الكلمات التي كتبها الضحايا بالدم على المرايا ثم قتلوا أنفسهم في قاعدة الصقر العسكرية...

ن...حن ... نحن

خل... صنا... خلصنا

ر.. وحك... روحك

نحن خلصنا روحك

إما ... مع...نا... إما معنا

أو... عل... ينا... أو علينا

نحن خلصنا روحك ... إما معنا أو علينا...

هذا ما كتب على المرايا "نحن خلصنا روحك إما معنا أو علينا"

ماذا تعني هذه الكلمات؟

ربما تعني أن سيد الرمال المتحركة وشياطينه يقسمون العالم إما معهم أو ضدهم فقط ولا يوجد أي حل وسط.

فجأة قاطع صوت مكبرات الصوت في القاعدة خلوتي وتأملاتي... أعلن الضابط كولين عن تدمير قاعدة الصقر بالكامل ويهنئ الجنود بهذا النصر المؤزر والقضاء على سيد الرمال المتحركة وأنصاره، أما أنا فقد كان لدي إحساس بالسوداوية المعتمة لأني مؤمن بوجود هزات ارتدادية نتيجة هذا الفعل وأن هناك أبرياء قضوا بتلك الضربات الجوية.

إن القوة المفرطة لا تولد إلا عنفا وحقدا وأن الفكر لا يعالج إلا بالفكر.

محصلة اليوم كانت مجموعة من الأخبار السيئة. أحتاج إلى أن أشتت عقلي وأشغله بشيء ثانٍ يبعده عن تكوين غيوم سوداء.

وضعت سماعة الرأس في أذني وفعلت تشغيل أغاني هادئة في هاتفي النقال وبدأت أركض في ساحة القاعدة العسكرية متناسيا كل ما حدث حتى عدت متعبا إلى سريري.

كنت أسأل نفسي وأنا في السرير أحدق في سقف الغرفة "هل ستلاحقني الكوابيس هذه الليلة؟".

- يمكن أن تجربها إنها لعبة مثيرة وتستحق التجربة

قال شخص في متوسط العمر يتأرجح على حافة سطح بناية شاهقة وأنا أنظر إليه متعجبا من فعله ومن هيئته كان كأنه يقصد عدم التنسيق في ملابسه. يرتدي سترة حمراء وقميصا أصفر وبنطالا أزرق. البرد كان قارصا هنا وأنا أتلفت يمينا ويسارا باحثا عن باب مفتوح للدخول إلى البناية.

- من أنت؟ وعن أي لعبة تتحدث؟

قلت محاولا أن أجد التفسير المنطقي لكل هذه اللا منطقية.

أخبرني أن اسمه "الدكتور بوديكين" وأخذ يتحدث عن أمور غريبة يقول بأننا داخل لعبة سهلة ومسلية وهو دليلي في هذه اللعبة وأنني بمجرد أن أعبر عدة مراحل بسيطة سوف أفوز وأحصل على جائزة قيمة...

قوانين اللعبة أن أنفذ ما يقوله الدكتور بدون نقاش وأبرهن له الطاعة العمياء على أن يمنحني الخلود إذا اجتزت كل المراحل وبالوقت المحدد.

- هذه هي قوانين اللعبة سيد ازاد.

- وإذا رفضت؟

- إذا رفضت سوف تبقي عالقا في هذه اللعبة إلى الأبد كما أنك سوف تخسر أعز إنسان على قلبك.

- أعز إنسان؟!

- من هو أعز إنسان على قلب ازاد يا ترى؟ ديسمند... لا، أمك... ربما، رواسي... إجابة صحيحة فعلا إنها رواسي.

كان الدكتور بوديكين يتكلم بأسلوب استفزازي.

- أنت تكذب ولا دليل على ما تقول.

بدأ يسمعني مقطع صوت كان فعلا صوت رواسي وهي تبكي وتطلب مني أن أنقذها. اهتزت مشاعري وأحسست أنها لا تملك غيري فتولدت لدي رغبة جامحة بأن أتحمل مسؤولية حمايتها.

كان عقلي منقسما على نفسه بين مصدق ومكذب، بين رافض للموضوع جملة وتفصيلا وبين راضخ للتهديد.

- هذا اختطاف... هذا عمل منافٍ للأخلاق وضد القانون.

قلت بهيجان شديد وأمسكت أجرّ الرجل من قميصه.

- نحن من نصنع الأخلاق أما أنتم المغفلون فتصنعون القانون لندوس نحن عليه... دعني وإلا ستندم.

اقترب مني وهمس في أذني " مجرد عدة مراحل بسيطة. المرحلة الأولى هي أن تردد الطاعة العمياء ألف مرة. إنه أمر في غاية اليسر".

تركته وبدأت أفكر في الموضوع: "لماذا لا أنفذ ما يقول وأنهي هذا القلق بسرعة، إنها مجرد كلمات لا تقدم ولا تؤخر".

- هل تعدني بألاّ تؤذي رواسي؟

قدم لي وعوده وأقسم أنه لن يؤذي رواسي وطلب مني أن ندخل إلى داخل المبنى حيث الدفء.

تركني وحدي في غرفة معتمة يصدح فيها صوت أغنية حزينة. أراد مني أن أردد ألف مرة "الطاعة العمياء" وسوف يعود لكي يعطيني تعليمات المرحلة الثانية.

كنت أقول في نفسي "لا تصعب الأمور... إنها مجرد كلمات سخيفة للعبة سخيفة. ستفرح رواسي كثيرا إذا علمت أنك فعلت ذلك لكي تنقذها".

الطاعة العمياء

الطاعة العمياء

كانت الموسيقى الكئيبة والإضاءة الخافتة تشعرني بضيق في التنفس.

الطاعة العمياء

الطاعة العمياء

تيار التمرد في داخلي كان يقنعني بأن أقول له بأنني انتهيت من ترديد تلك الكلمات الحمقاء لكنني في الحقيقة لم أكملها.

- أيها الدكتور لقد انتهيت ... هل من الممكن أن أذهب للمرحلة الثانية؟

- نحن لا نحب الغش... لقد رددت الكلمات ٤٠٠ مرة فقط لذلك سوف تعيد العد من جديد.

قال دكتور بوديكين عبر مكبر للصوت معلقة في إحدى زوايا الغرفة.

كان دائما يردد " نحن" يا ترى من هم؟ عصابة تريد أن تستغلني؟ أم أنه وهم موجود في خيالي فقط؟ لم يكن أمامي حل سوى الرضوخ إلى الأمر الواقع وترديد الكلمات حتى وصلت للرقم المطلوب.

فتحت باب الغرفة تلقائيا... طلب مني الدكتور أن أتحول إلى الغرفة الثانية لأبدأ المرحلة الثانية لكني استغللت الفرصة وركضت في الممر لأجد مخرجا من هذه البناية المظلمة والغريبة.

الممر كان مغلقا من الجانبين ولا يوجد أي منفذ.

حاولت بكل ما أوتيت من قوة أن أجد بصيص الضوء فلم أفلح حتى دب اليأس في عروقي.

- محاولة بائسة، يا سيد ازاد. سوف تخسر كل شيء إذا لم تعد إلى الغرفة الثانية في غضون دقيقة.

كانت رسالة تهديد واضحة من الدكتور فقد تحول أسلوبه معي من الإقناع إلى الأمر... ولكني أدركت أني محتجز فعلا لديه أو في داخل هذه اللعبة كما يدعي. طلب مني أن أستخدم الورقة والقلم لكتابة ملخص عن فيديو سوف يعرضه عليّ على الشاشة.

كان الأمر يبدو سهلا ولكن الفيديو كان مقززا ومثيرا للاشمئزاز. رجل يعمل عملية لشخص بدون مخدر. كانت أحشاؤه الداخلية ظاهرة للعيان والدم مراق في كل مكان. كانت لدي رغبة بالتقيؤ. يدي ترفض الكتابة. شيء ما يسير ضد فطرتي ... مخالف لإنسانيتي.

كان صراعا رهيبا في داخلي بحيث إنى أجبرت قلمي على الكتابة وبمجرد أن أنهيت مقطعا واحدا تقيأت.

لم أستطع مشاهدة المزيد.

- تهانينا... لقد اجتزت المرحلة الثانية بنجاح لم يتبق سوى القليل من المراحل وتنهي اللعبة... اذهب واغسل وجهك وبدل ثيابك واستعد للمرحلة الثالثة في الغرفة المجاورة.

بعد راحة أقل من نصف ساعة طلب مني دكتور بوديكين أن أقرأ الظرف الموضوع على منضدة في الغرفة والذي يشرح المهمة الثالثة.

كانت مهمتي الجديدة هي عمل وشم على يدي باستخدام سكينة صغيرة على المنضدة.

- لن أؤذي نفسي أبدا. لن أقوم بهذه المهمة...

صرخت بصوت عال مقتربا من مكبر الصوت.

- يجب عليك ذلك... كن رجلا إنه مجرد وشم صغير... لديك ثلاثون دقيقة لفعل ذلك ... العداد بدأ بالعد... حظا موفقا...

كنت أنظر إلى السكين وصوت العداد كان يؤرقني...

تك...

تك...

تك...

أخذت السكين وبدأت أحفر في يدي والدم يجري منها والعرق يتصبب من جبيني. لم أكن أحلم يوما أن أجري عملية لأحد فما بالك أن أجريها لنفسي؟ أحسست بدوار وفقدت توازني وسقطت مغشيًّا على الأرض.

قدّم دكتور بوديكين الإسعافات الأولية للجرح في يدي، ولكن الأثر النفسي الذي سببته هذه الحادثة أعتقد أنه سيرافقني طويلا... نظرت إلى الوشم الذي نحتُّه في يدي كان غير منتظم ومنفَّذًا بطريقة بدائية سيئة.

- مجرد مرحلتين وتنهي اللعبة وتفوز يا بطل. سوف تفرح رواسي كثيرا عندما تعلم أنك فعلت كل هذا من أجلها.

بعد عشر دقائق طلب مني التحرك إلى الغرفة المجاورة... حاولت الانسحاب ولكنه عرض عليّ فيديو جديد لرواسي وهي محتجزة لديه وتستنجد بي لأنقذها... صراع أزلي تجدد في أعماقي بين شرير يستخدم الحق كذريعة وطيب جبان منكسر...

المرحلة الرابعة كانت غاية في الصعوبة. طلب مني الدكتور بوديكين أن أذبح أرنبا صغيرا كان يحتجزه في قفص تحت سريري. كان لونه أبيض مع بقع سوداء يلهو في حجرته ويشم يدي ولا يعلم أنها ليلته الأخيرة.

كانت آخر دفاعات الفطرة في داخلي تنهار وأنا أذبح هذا الحيوان الوديع. لم أستطع النظر إليه فوضعت وسادة عليه وقمت بجريمتي.

هكذا يصنع المجرمون أو هكذا تضطر الظروف الناس ليصبحوا مجرمين. نظرت إلى السكينة وهي تقطر دما كما أن الوسادة تلطخت أيضا.

- تهنئة كبيرة جدا لك ازاد لقد اجتزت كل المراحل ولم تتبقّ سوى خطوة واحدة وتنهي اللعبة.

- أين أذهب الآن؟

لأول مرة أطلب أنا منه تفاصيل المرحلة التالية، يبدو أن اللعبة نجحت في تحقيق أهدافها وخلق مني شخصا لم يعد يكترث للمشاعر كثيرا.

- أنت متسابق رائع يا ازاد... اذهب إلى الغرفة الثانية وقبل أن تدخل يوجد صندوق خذه معك سوف تحتاج إليه.

دخلت الغرفة... كانت هناك فتاة نائمة على سرير... نعم إنه جسمها وشعرها، أنا أعرفها إنها رواسي. نظرت سريعا إلى قدمها لكي أتأكد أكثر، كان الثوب مرفوعا قليلا فشاهدت القدم الاصطناعية.

فوق القدم كان هناك وشم مرسوم بحرفية عالية ليس مثل وشمي القبيح، تتبعته فوجدت بدايته لكني لم أستطع أن أعرف أين ينتهي ولكنها كانت هي رواسي بشحمها ولحمها...

كنت أصرخ أناديها وهي لا تجيب...

- عليك أن تطلق النار على الضحية الأخيرة من المسدس الموجود في الصندوق.

- إنها آخر ثلاثين دقيقة ثم ستنتهي اللعبة وستحصل على الجائزة... خذ المسدس وأطلق النار عليها ستحصل على كل شيء.

- لن أفعل ذلك أبدا... رواسي ... رواسي... استمررت في محاولة إيقاظها وهي لا تجيب كأنها مغمى عليها.

- بالمناسبة إنها ميتة ... أريد منك أن تطلق النار على ميت. إنه أمر سهل.

- تبا لك ... وتبا للعبتك الدنيئة... لقد وعدتني ألا تؤذيها لكنك مجرد كاذب.

اعترتني نوبة من الهستيريا لم أعد أسيطر على انفعالاتي وبدأت أرمي الرصاص على مكبرات الصوت حتى نفدت الذخيرة ثم جلست في أحد الأركان واضعا كلتا يديّ على رأسي...

عاود صوت بوديكين يصدح من سماعة أخرى:

- انقضت المدة المقررة لاجتياز هذه المرحلة... هذا هو النداء الأخير... سينتشر الغاز القاتل في أرجاء الغرفة بعد لحظات...

واحد...

اثنان...

ثلاثة...

لم أكن أكترث لكلامه ولا للغاز الذي بدأت أشم رائحته، بل بالعكس تذكرت أبياتا شعرية جميلة كنت أحفظها...

ما الإنسان دون حرية يا ماريانا؟!

قولي لي كيف أحبك إن لم أكن حرًّا ...

كيف أهبك قلبي ...

وقلبي ليس ملكي؟

شخص ما جذبني من فراشي ورماني في الأرض وأنا في نوبة سعال... الشخص كان بهلولا مرة أخرى...

- ستقتلك الكوابيس يا ازاد...

قال لي ذلك وقد هدأت نوبة السعال.

- إعصار يضرب أعصابي كل ليلة ... إنني أنهار داخليا يا بهلول...

- لا أملك حلا لك صديقي ...

كان مكلفا بأن ينقذني من الكوابيس لكيلا أصبح أسيرا لشيخ الأبالسة، هذه هي أمنيتي وهذه هي مهمته.

نصحني بأن أواصل التفكير في الصمود ومحاولة إيجاد مخرج

- "فكر في الهجوم لا تستنفذ طاقتك في الدفاع فقط والمفاتيح التي تحتاجها قد تكون في كوابيسك".

قال بهلول ثم رحل.

فعلا يجب أن أهاجم بدلا من أن أنتظر الشياطين وهي تدخل في رأسي عنوة لتقلق منامي ولكن ماذا يقصد بأن المفاتيح موجودة في كوابيسي؟!

لا بد من أن أعيد حساباتي.

أحتاج إلى كتاب العزيف لكي أوقف تأثير تلك الأحلام.

لدي قاموس الشياطين فقط أحتاج إلى الخريطة.

الخريطة مع رواسي ولكن رواسي فقدت الذاكرة ومن الصعب أن تتذكر مكان الخريطة.

هل كان بهلول يلمح إلى إمكانية إيجاد الخريطة في كوابيسي؟ أو على الأقل قد أحصل على إشارة إلى مكان الخريطة.

طال تأملي ومراجعتي للأحلام المزعجة التي تراودني ولكني لم أجد ذلك الخيط الذي يوصلني إلى مكان الخريطة.

هممت بحزم أمتعتي لأغادر المكان فقد نويت أن أستقيل وأعود إلى أمي أروي لها القصص التي صادفتني والتي لا تحدث إلّا في الخيال.

أترك هذا الوجع وأتزوج بنت جارنا أبو حيدر "مياسة" فهي تجيد الطبخ والنفخ وفن التعامل مع عمتها، ليس بالضرورة أن أكون أنا مقتنعا بها تماما، ولكن ولله الحمد أمي راضية عنها.

أطلب منها أن تنجب ثلاثة أولاد وبنتا، أختار أنا أسماء الذكور وأمنح فرصة تسمية الأنثى لها ولا أدع أحدا من أهلها يتدخل.

وأطلب من الجميع أن يحبوا كرة القدم وأن يشجعوا النادي الملكي، نادي ريال مدريد فأنا رب الأسرة الشرقية ودكتاتور بطبيعتي وأفرض ما أريد، فمن يميل قلبه إلى الغريم التقليدي نادي برشلونة أو يعشق البرغوث "مسي" يحرم من المصروف وتحل عليه اللعنة. في مباراة "الكلاسكو" بين الفريقين آمر العائلة أن يرتدوا الزي الأبيض، الزي الملكي. أما أنا فسوف ألبس "تشيرت" الذي يحمل الرقم ٧ فأنا الدون والكابتن وأحيل البيت إلى جحيم إذا ما خسر فريقي المفضل وأقلب الطاولة رأسا على عقب وأرعد وأزبد في وجه مياسة وأضرب الباب وأخرج مع أصحابي نشرب "الأركيلة" في مقهى البيروتي نحلل أحداث المباراة وننتقد الحكم والمدرب ثم يجرنا الحديث إلى السياسة فنشكوا ظلم والينا ونظام حكمه الدكتاتوري في البلد

ونتعجب من أين أتى وكيف وصلت الدكتاتورية إلى الحكم وكيف تنتهك حقوق الطفل والمرأة في ظل حكمه ونستنتج في النهاية أن سبب خسارة نادي ريال مدريد وانهيار التعليم والصحة ووصول الحشرات والحيوانات القارضة إلى سدة الحكم هي مؤامرة ماسونية.

(٥)

الهروب

كنت أكاد أقنع نفسي المتمردة الراغبة في صخب المدافع وأصوات الرصاص ورائحة البارود أن تجنح إلى السلم والعودة إلى الديار. أرغب في أن أغفو بحضن أمي الدافئ وأنسى ما جرى وأنأى بنفسي عما سيجري حتى طرق ديسمند باب غرفتي بعنف كان محملا بالمعلومات... طلب مني أن آتي معه فالضابط كولين استدعاني لأمر خطير... ليس خطيرا فحسب بل كان أمرا جللا.

- سيد الرمال المتحركة ما زال حيا.

كان يجرني من غرفتي جرا ويركض بي إلى القاعة الرئيسية حيث مكتب القائد كولين.

جندي من الجيش العراقي يجلس في المكتب مع الضابط كان مرهقا ومصابا بالهلع كأن "الطنطل" ركض وراءه.

طلب مني الضابط كولين أن أفهم القصة كاملة من الجندي متناسيا الشجار الذي حصل في الاجتماع ثم تركنا وحدنا...

- ماذا حدث؟
- إنهم في كل مكان... صدقني سوف يصلون هنا قريبا.
- من هم؟

- أنصار سيد الرمال المتحركة. أنا أعرف أنك لن تصدقني إذا قلت لك بأنه ما زال حيا وأنا رأيته بعيني وقد عاد أقوى من قبل.

كان اسمه حسن، جندي في معسكر محصن للجيش العراقي قريب من قاعدة الصقر العسكرية. كانوا يضعون واقية الأذن كما جاءتهم التعليمات من بغداد تحسبا لأي أعمال انتقامية قد تصدر من أنصار سيد الرمال المتحركة بعد الضربات الجوية على أماكن تجمعاتهم. ولكن سيد الرمال المتحركة بدأ بإرسال عشرات المفخخين ليفجروا أنفسهم على أسوار وحرس المعسكر كما أرسل رسائل تهديد ومهلة محددة قبل أن يقتحم المعسكر.

حدث هذا في ساعات قليلة انهار كل من في المعسكر. الضباط طلبوا الدعم من بغداد عدة مرات ولكن لم تصلهم أي تعزيزات فأخذوا العجلات وهربوا. رغم العدة والعدد إلا أن الجيش لم يكن يملك الإيمان الكافي وكان منهزما نفسيا. لم يكن أحد مستعدا للموت من أجل ضابط مرتشٍ أو وزير فاسد ليس لديه انتماء لهذا الوطن ويصرف أموال الناس على "الكيولية" وعائلته مرفهة تسكن في الخارج وفي الجانب الآخر كانوا تنظيما معبأ فكريا ومشحونا روحيا، كانوا مستعدين للموت من أجل سيدهم. أخيرا هرب من هرب أما الباقي فقرروا الاستسلام طمعا في العفو والرحمة.

اقتحم سيد الرمال المتحركة المعسكر مع أنصاره بدون مقاومة تذكر وكان يصرخ...

- أنا سيدكم... أنا سيدكم وأنتم عليكم الطاعة أيها العبيد... الطاعة فقط.

ثم سأل عن الضباط في المعسكر لكن لم يجب أحد من شدة الخوف فكرر "أين الضباط هنا". فأجابه أحد الجنود

- لقد فر الضباط...

فلطمه سيد الرمال المتحركة وأخرج مسدسه وأطلق عليه النار وصرخ:

- يجب أن تتعلموا الأدب أيها الأوباش، فأنا منذ هذه اللحظة سيدكم... عندما تخاطبوني تقولون بكل خشوع " يا سيدي"، هل فهمتم أيها الأوغاد؟

كان الجندي حسن يروي القصة وهو مرعوب ويداه ترتجفان فحاولت أن أهدئ من توتره...

- اشرب عصيرك.

- شكرا لك ...

بدأ سيد الرمال المتحركة يقتل الجنود في المعسكر الواحد تلو الآخر بلا رحمة أو شفقة مثل الخراف على الرغم أنهم تركوا السلاح واستسلموا.

الجندي "مسافر" كان يتوسل أن يرحموه من أجل أطفاله الخمسة لكنهم تلذذوا في تعذيبه وهو يبكي حتى فارق الحياة. نصبوا مسلخا بشريا كبيرا يقطعون الرؤوس ويرمونها في نهر دجلة حتى تغير لونه واصطبغ بلون دمائهم.

الجندي "عدي" كان يقرأ بعض الأوراد والأدعية لعلها تحفظ حياته لكن سيافا ضخما غليظا منقوعا بالدماء حز عنقه من دون تردد أو رمشة عين.

بلع الجندي حسن ريقه ثم أكمل...

- تدحرج رأس عدي نحوي حتى استقر وجها لوجه أمامي كانت عيناه الجاحظتان تنظر إلي وتروي لي ماذا فعلت الهمجية بأرضنا وكيف استطاعت أن تطمس آلاف السنين من الحضارة بلمح البصر. دمه الدافئ سال حتى لامس قدمي فشعرت بحرارته. كان الأمر مروعا، أحسست أن ملك الموت قريب جدا مني، كان يجب عليّ أن أتصرف فجثوت على ركبتي وقلت له إني أملك معلومات عن معسكرات الجيش العراقي ووجود الأمريكان فقط دعني أعش وسأعطيك كل المعلومات التي تريد.

حينها أمر اثنين من أتباعه أن يحملاني ويقذفاني في سيارة الحمل "بيك اب"

وجدت زاوية صغيرة كورت نفسي فيها محاولا التقاط أنفاسي وقد تحركت السيارة إلى المجهول. بدأت أتفحص من فيها كانت مكتظة بالنساء والأطفال. لفت انتباهي الطفل الذي يجلس في الزاوية الأخرى كان يكاد تعدى العقد من العمر وهو يصرخ من الألم وهو يمسك ذراعه المقطوعة، مرمي هنا بدون مخدر وبدون إسعافات أولية. كانت تسريحة شعره جميلة تشبه تسريحة "كرستيانو رنالدو" يبدو أنه قد ذهب إلى مصفف الشعر قبل أيام قليلة من دخول التتار أرضنا وتخريبها وقتل الطفولة والبراءة. في الجهة المقابلة للعربة كانت تجلس فتاة وهي مصفرة كأن روحها تنوي مغادرة جسدها قريبا، كانت قطرات دم تنزل من بين ساقيها وتتجمع في بقع صغيرة على ثوبها الأبيض. في أغلب الظن أنها تعرضت لاغتصاب متكرر حتى بدأت تنزف نزيفا حادا.

طوال الطريق كانت تحدق إليّ سيدة متوسطة العمر تجلس جواري وتحمل في حجرها طفلة حافية وثيابها رثة وعلى وجهها آثار الطين.

قالت لي: " أيها الغبي سيقتلونك بمجرد أن تصل هذه العربة إلى مقصدها".

تفاجأت من كلامها معي وبهذا الأسلوب ومن غير مقدمات. كانت تضع يدها على أذني الطفلة. "سأوقف السيارة وأقفز على الحرس في حين تأخذ أنت ابنتي وتهرب... لا تلتفت إلى الوراء". لم تعطني أي مجال للتفكير بدأتْ بعمل ضجيج في العربة مما استدعى من الحرس أن يترجلوا ليعرفوا السبب فرمت ابنتها عليّ وقفزت على الحرس وهم يطلقون عليها النار.

كانت تصرخ "اهرب بسرعة ... اهرب". حملت الطفلة وهربت بأقصى سرعة. لم تكن لديّ الجرأة أن أنظر إلى الوراء، لكن المرأة الفدائية ظلت تصرخ...

نادية ... يجب أن تعيشي لتروي قصة اغتصاب الحضارة من الرعاع في بلدي...

نادية... لا تنسي أمك وقولي للناس بأنها كانت أشجع من مغتصبيها وقاتليها...

عيشي حرة وموتي حرة فبلاد ما بين النهرين مقبرة النسور...

كان صوتها يضعف مع كل طلقة تخترق جسدها. جعلت من نفسها درعا بشريا لتحمي ابنتها وسدا منيعا يدرأ الخطر عن تلك الطفلة.

ظللت أركض حاملا إياها لساعات بدون توقف حتى وصلت إلى منطقة آمنة... سلمت نادية للذين تبقوا من أهلها وجئت إلى هنا.

أكمل الجندي حسن قصته. كان متأثرا جدا وقد نقل هذا التأثر إلي فصعقت مما سمعت وأحسست أن الظلام سيغطي هذه البقعة في القريب العاجل.

- أيها الجندي حسن، نحن نقدر شجاعتك وحرصك في إعادة الطفلة... يجب أن تأخذ قسطا من الراحة وسنواصل الحديث. قلت له وذهبت إلى الضابط كولين الذي كان يقف في القاعة يوجه الضباط ويتابع سير العمليات.

- لقد قلت لك بأن استخدام القوة المفرطة قد يفضي إلى نتائج كارثية وهذا ما حدث، عاد سيد الرمال المتحركة أقوى من ذي قبل وهو يسيطر على مساحات واسعة الآن.

كان صوتي عاليا. لم يعد يهمني تسلسل المراجع والكيفية التي أخاطب بها المسؤولين، لقد طفح الكيل.

- لا وقت لهذا الآن... يجب أن نتعامل مع الوضع الراهن.

قال الضابط كولين بنبرة أقل حدة من السابق وكأنه اعتراف ضمني بالخطأ الذي ارتكبه.

- أنت المسؤول هنا ويجب أن تجد حلا لكل هذه الفوضى التي حصلت والتي ستحصل بسبب قرارات فردية غير مدروسة.

أفرغت ما في جعبتي واستدرت بسرعة مقررا الخروج من القاعدة العسكرية بلا عودة ولكني اصطدمت بإحدى الممرضات التي كانت محملة بالأوراق إلى مكتب القائد فتناثرت هنا وهناك بسبب زخم التصادم.

تأسفت وبادرت بمساعدتها في لملمة الأوراق المبعثرة...

لمحت اسم رواسي في أحد الأوراق. كان تقرير الطبيب حول حالتها الذي ينصح بإرسالها إلى العاصمة الأمريكية واشنطن على وجه السرعة والسرية التامة لغرض إجراء دراسة معمقة عليها.

عدت مسرعا إلى غرفتي أفكر مع نفسي "يجب أن آخذ رواسي وأهرب". كانت عربة التنظيف تقف أمام غرفتي واثنتان من موظفات النظافة تقومان بأعمال التنظيف الدورية.

- نأسف على الإزعاج سوف نكمل تنظيف الغرفة في غضون دقائق.

قالت إحداهن مع ابتسامة عريضة. لفت انتباهي وشما جميلا على شكل أفعى يمتد من رأسها ثم يختفي تحت القميص. كان له بداية وليس له نهاية.

"لحظة ... وشم له بداية وليس له نهاية... هذا الوشم يذكرني بالوشم الذي كان على ساق رواسي الذي رأيته في الحلم... كان يشبه الخريطة... نعم إنها الخريطة... لقد وجدت الخريطة". كنت أصرخ كالمجنون في الممر والموظفات يضحكن باندهاش من تصرفاتي.

بدلا من الذهاب إلى غرفتي ذهبت إلى غرفة ديسمند...

- أحتاج مساعدتك صديقي...

كنت في أشد الحاجة لخدماته وشخص أثق به يقف إلى جانبي.

- ما الأمر ازاد؟

نظر إلى وجهي وهو يقرأ ملامح القلق.

وضحت له تفاصيل الموضوع وأننا يجب أن نحرر رواسي ونهرب كما أن الضابط كولين يتصرف بعنجهية ويقيد حركتي للوصول إلى كتاب

العزيف الطريقة الوحيدة لإيقاف زحف سيد الرمال المتحركة، كما أنه ينوي إرسال رواسي إلى أميركا لدراسة حالتها.

- هل تستطيع مساعدتي وسأكون شاكرا لو قبلت وسأعذرك لو رفضت.

كان في البداية مترددا ولكنه أحس بعينيّ وهما يتوسلان إليه ليساعدني فوافق رغم معرفته بحجم المخاطر المحدقة بنا وأنه قد يخسر وظيفته، بل ربما يخسر جنسيته الأمريكية بسبب هذا العمل.

الخطوة الأولى يجب أن نقنع رواسي بفكرة الهرب، أما الخطوة الثانية فهي التسلل خلف الحرس والكاميرات. لا بد أن نحصل على بدلات التخفي الموجودة في مخازن الجيش الأمريكي لننفذ العملية.

- نحتاج الضابط ابرا لنحصل على تلك البدلات.

كنا متخوفين من طرح الموضوع على الضابط ولكن لم تكن لدينا خيارات كثيرة كما أنه كان يميل إلينا أكثر من الضابط كولين الذي كان يعارض العديد من قراراته خاصة القرارات المتعلقة بضرب قاعدة الصقر العسكرية.

- نحن في الجيش وهناك ضوابط ولوائح قد أطرد إذا خرقتها. لا تدخلوني في هذه الخطة.

قال الضابط ابرا وهو يهز ساقيه بسرعة مستمعا إلى خطتنا.

- من أجل ألّا يذهب دم الرقيب درو هدرا يجب أن تساعدنا...

قلت له محاولا استنهاض عواطفه واستذكار تضحيات الجنود الذين كانوا تحت إمرته، ديسمند ساند موقفي حتى أقنعنا الضابط ابرا.

- حسنا... حسنا... فليأت أحدكما إليّ بعد ساعتين من الآن. سأحصل لكما على ثلاثة بدلات مع طريقة الاستعمال. كونوا حذرين فهذه البدلات معقدة تحتاجون إلى التدريب عليها. هل تعلمون أن البدلات تحتوي على شريحة تعقب؟

صعقنا من هذا الخبر "شريحة تعقب؟ لقد فشلت كل خططنا".

لكن الضابط كان لديه برنامج يعطل هذه الشريحة. قال إنه سيعطيه لنا ويعلمنا طريقة تنصيبه كما أعطانا رقمه الخاص لنتصل به في حالة الطوارئ.

- شكرا... ضابط ابرا أنت رائع.

قال ديسمند ثم خرجنا من مكتبه نرتب الأوراق من جديد. لم تكن مهمة إقناع رواسي سهلة لكنها لم تكن مستحيلة أيضا. بمجرد أن فتحت باب غرفتها حتى بدأت تفضي إليّ بما يشغل بالها وكأنها كانت تحتاج إلى شخص لتخرج ما في داخلها من حوارات فقالت: " لقد اكتشفت أن لدي قدرات خارقة" ثم أخذت ترمي الورقة وتجمدها. كانت فرحة بهذه القدرة مثل طفلة حصلت على لعبة جديدة.

صارحتها بفكرة الهرب فاعترضت ورفضتها جملة وتفصيلا لكني اكتشفت نفسي مفاوضا عنيدا. أخبرتها أن الوشم لديها هو عبارة عن الخريطة التي توصلنا إلى الكتاب ونحن نحتاجها معنا لننتصر على الشر ولن نستطيع الحصول على الكتاب إذا بقينا هنا. ظلت رواسي مصرة حتى أخرجت لها صورتها مع سيد الرمال المتحركة والطفل. صعقت وجلست على المقعد وتجمد وجهها وسألتني: "من أين حصلت على هذه الصورة؟"

كان هو الطفل نفسه الذي تراه في منامها كل يوم...

- ألا يدفعك الفضول لمعرفة ما هي علاقتك بهذا المجرم والطفل؟ أنا أحتاج إليك لنجد الكتاب ونعيد الأمور إلى جادة الصواب.

مالت أخيرا لفكرة الهروب واتفقنا أن أعود إليها في الليل مع ديسمند وبدلات الاختفاء.

اتصلت بصديق والدي "أبو وسام" ليؤمن لنا منزلا قرب مدينة بابل القديمة. أبو وسام كان فلاحا له عائلة كبيرة مكونة من ثلاث زوجات وخمسة عشر إبنا وثلاثة وعشرين حفيدا. بعض الأحيان لا يتذكر أسماء أحفاده لكنه يحتاج إلى الأيدي العاملة خاصة الذكور منهم.

يملك أبو وسام مزرعة صغيرة في إحدى قرى بابل. عائلته لديهم اكتفاء ذاتي من الطعام فنادرا ما يذهبون إلى البقال أو الجزار. يأكلون مما يزرعون ويربون المواشي. حياتهم صافية لم تلوثها إفرازات الشبكات العنكبوتية والحواسيب الذكية. رائحة العنبر والفواكه الطازجة تملؤ المكان.

النساء يخرجن كل صباح بهمة ونشاط يحلبون الأبقار والجاموس ليحولوا حليبها الطازج إلى لبن وجبن وقيمر وزبد. كم هو لذيذ قيمر الجاموس وحليبها الدسم.

كان أبو وسام مضيافا ويحب والدي كثيرا؛ فقد خاض معه حرب "نهر جاسم" الدموية فنجا هو بأعجوبة وقد قدم أبي نفسه قربانا لهذه الأرض التي أثخنت بالدماء. أقام أهل الدار حفل شواء في البرية بمناسبة قدومنا، نسيم الريف كان عليلا ويزيد من الطاقة الايجابية.

الأطفال اجتمعوا حول رواسي وهي تعلمهم بعض خدع السحر فتجمد البقرة ثم تحركها فيغص الأطفال بالضحك وتتعالى صيحاتهم. ديسمند رأى وجها آخر للحياة لم يألفها لا من قريب ولا من بعيد. كان يشعر بالسعادة مع الحذر فهو وسط أناس لا يتكلمون لغته إلا ما ندر ولأول مرة يشاهد امرأة تحرق يدها من أجل أن تمنح عائلتها خبزا حارا من التنور اللاهب.

في الصباح الباكر ذهبنا لصيد السمك في جدول صغير قرب المزرعة. لم أكن وافر الحظ في الصيد فكان نصيبي سمكة صغيرة تدعى في اللهجة العراقية "زوري" أما ديسمند وأبو وسام فاصطادا ثلاث سمكات كبيرات كن كافيات للغداء. شوينا صيدنا على الطريقة العراقية "المسكوف".

أبو وسام التقم عن خبرة وفراسة لقمة الصياد أما أنا فكنت أحب بيض السمك "الثرب" و"الحلولو". في المساء اجتمع الجميع في دائرة كبيرة حول النار. كنا نتسامر على ضوء القمر وديسمند ينظر إلى تعابير وجوهنا لا يفهم ما نقول حتى أسعفه بترجمة تثلج صدره.

"وسام" ابن رب الدار خريج كلية الآداب في الجامعة المستنصرية، كان تخصصه لغة عربية. لم يحالفه الحظ في الحصول على "واسطة" أو علاقة برجل متنفذ في الدولة للحصول على تعيين فعلق شهادته قرب المرحوم جده، وظل يساعد أبو وسام في المزرعة لكن ظل لديه شغف بالشعر العمودي، فكان يستفزني ويجرني أنا وأباه إلى مبارزة شعرية.

- قوانين اللعبة سهلة. أنا أقول ما أحفظ من الشعر العمودي، وعندما أنتهي تكمل أنت من حيث انتهيت شعرا حرا وبعدها يكمل أبي من آخر حرف ليبدأ أبياتا من الشعر الشعبي.

والشعر الشعبي هو شعر بلغة الشارع العراقي الدارجة وينتشر في المناطق الشعبية...

كان الحضور متحمسا أكاد أرى ذلك في عيونهم فلم يعد هناك مجال للتراجع لقد وضعنا وساما في زاوية ضيقة.

قلت لوسام: "هات ما عندك يا بطل الشعر العمودي..".

أبو العلاء المعري

تعبٌ كلها الحياة فما أعجبُ

... إلا من راغبٍ في ازديادِ

إنَّ حزناً في ساعة الموت أضعاف

... سرورٍ في ساعة الميلادِ

خُلق الناسُ للبقاء فضلَّت

أمةٌ يحسبونهم للنفادِ

إنما ينقلون من دار أعمالٍ

... إلى دار شقوة أو رشادِ

انتهيت بالدال دورك يا ملك الشعر الحر ... قال وسام والجمهور يصفق له وبدأوا يعدون لي...

واحد...

اثنين...

ثلاثة...

نزار قباني

دعيني أصب لك الشاي،

أنت خرافية الحسن هذا الصباح،

وصوتك نقش جميل على ثوب مراكشية

وعقدك يلعب كالطفل تحت المرايا...

ويرتشف الماء من شفة المزهرية

دعيني أصب لك الشاي، هل قلت إني أحبك؟

هل قلت إنى سعيد لأنك جئت...

وإن حضورك يسعدني مثل حضور القصيدة

ومثل حضور المراكب والذكريات البعيدة...

كانت رواسي تتابع القصيدة على استحياء وعيناها تهرب مني باسمة كلما نظرت إليها...

دورك أبا وسام لتشجينا شعرا شعبيا يبدأ بحرف التاء...

يحيى العلاق

تدريني أنبكت لتكلي هم مبيوك

فرق سم المكاسر عن البراسة

أحلامي بسيطة ومو حلم بطران

يفتح بطن سمجة ويلكة بي ماسة

احلم بالأمان وليل ما بي خوف

واحلم بالزمان المن صدك ناسه

تأثر كل الحاضرين بالقصيدة التي ألقاها أبو وسام فوقف البعض منهم في حين كان البعض يصفق بحرارة واستمر السجال بيننا. كانت قصائد جميلة، أمضينا أمسية أكثر من رائعة.

في اليوم الثاني ذهبنا نصطاد نوعا خاصا من الطيور يسمى "الدراج" كان الصيد وفيرا هذه المرة.

اكتشفت أشياء مذهلة في شخصية رواسي كانت بريئة وطيبة مثل الأطفال. لا أستطيع أن أنكر أني بدأت أتعلق بها ووجودها يشكل ثقلا في حياتي.

- يجب أن نكون حذرين... كل الهواتف مراقبة لا بد ألا نتصل بأحد ولا نخرج إلا كمجموعة.

قال ديسمند وهو يشعر بالخطر من التجوال في الأماكن العامة.

كنا نجلس في بيت صغير كان يملكه أبو وسام قرب بيته. جمعت بعض المعلومات عن كتاب العزيف.

مؤلف كتاب العزيف يمني الأصل تاه في الصحراء ثم عاد ليكتب هذا الكتاب في القرن الثامن عشر. يعتقد المؤلف أن التاريخ عبارة عن حلقات مرتبطة تتكرر وتعيد إنتاج الشخصيات نفسها بأسماء مختلفة الشياطين والجن والوحوش والأشرار يتكررون بأسماء مختلفة. هو يعتقد إذا فهمنا الماضي جيدا فسوف نتنبأ بالمستقبل ويعرض في كتابه وحوشا وأشرارا سوف يظهرون في المستقبل ويضع الطرق التي تمكننا من التخلص منهم.

أتمنى أن يحالفنا الحظ ونجد أن كتاب العزيف قد تناول شخصية سيد الرمال المتحركة وطرق التخلص منه.

- كذلك أنا أتمنى ولكن من دفن النسخة الأصلية في بابل؟

سألت رواسي وهي تنظر من النافذة إلى الأطفال وهم يلعبون في الخارج.

وحش عملاق ظهر في أحد الأسواق وابتلع مؤلف كتاب العزيف تاركا وراءه الكتاب الذي أخذه كائن نصف جني ونصفه الآخر بشر وهرب به إلى بابل حيث توسل بوحوش وحراس بابل ألا يمس الأشرار هذا الكتاب. بعد أن وافقوا دفن الكتاب في مكان ما ووشم الخريطة على ساقه. توارث وشم الخريطة من هم من نسل هذا الكائن.

قهقهت هي وقالت: "هل أنا من نسل ذلك النصف جني والنصف إنسان؟"

- أكيد... كيف تفسرين امتلاكك قوة خارقة إن لم تكوني كذلك؟

قلت لها وأنا لا أشبع من النظر إلى عينيها الواسعتين.

- أنا مجهد ... سأذهب إلى النوم ولنكمل غدا خطتنا.

قال ديسمند وهو يتثاءب.

- أنا كذلك... ماذا عنك؟

سألتني رواسي.

- أنا لا أستطيع النوم فالشياطين تنتظر هذه اللحظة لافتراسي.

- صديقي لا شيء يمكنني فعله لمساعدتك.

الاثنان تركاني وركنا إلى النوم في حين كنت أنا أصارع الوسن لكيلا يغلبني ويدعني فريسة للشياطين كما تحوم النسور حول طفل يتضور جوعا منتظرين لحظة الانقضاض.

كان هذا هو قراري الأخير ولا تراجع. سوف أرمي نفسي من جسر "الصرافية" وأودع هذه الحياة التي لم أجن منها سوى الألم والإذلال... كنت يائسا بائسا متأثرا بمقتل صديقي ليلة أمس. الشرطة المحلية قتلته عن طريق الخطأ. ما زلت أتذكر وجه الشرطي وهو يقول باستهزاء نحن آسفين جدا صديقك كان يشبه أحد المطلوبين فأردياه قتيلا. لا تصعب الأمور وخذ صديقك وادفنه. وهو لا يعلم أنه كان صديق العمر ورفيق الدرب وعزيزا عليّ جدا ولا أستطيع أن أدفنه، بل لا أستطيع النظر إلى وجهه الشاحب وهو ممدد في ثلاجة الطب العدلي في مستشفى اليرموك. رحيله لم يكن سهلا بل كان مأساويا عليّ.

من حيث لا أدري جاء رجل كبير في السن، شعره أبيض وجلس بجانبي وبدأ يتكلم معي بهدوء ليس ليمنعني من الانتحار ولكنه كان يروج لطريقة جديدة للموت تجعل انتحاري مفيدا وذا مردود قد ينفعني في الحياة الأخرى التي أنا مقبل عليها. كان كلامه فيه الكثير من الصحة لكني كنت أشك في نواياه فهو كمن يدس قليلا من السم في وعاء كبير من العسل.

- الموضوع جدا بسيط، تنتقم ممن آذوك وآذوا صديقك وتحصل على جنان واسعة والكثير من النساء يا كازاخي.

كنت أقول له إن اسمي "ازاد" وليس "كازاخي" ولكنه مصر بأن هذا هو اسمي الجديد وأخذ يحدثني عن أمور دقيقة جدا حدثت معي في الماضي وتركت أثرا في حياتي "يجب أن تثبت أنك أفضل إنسان في هذا العالم الذي لم تجنِ منه سوى الألم والإذلال. أنت حتى لم تعش طفولتك... كنت تعمل منذ المرحلة الخامسة الابتدائي وعندما تعود تجد أباك يضرب أمك بقسوة

ويهينها أشد الإهانات. ألا تريد أن تنتقم من ذلك الأستاذ اللئيم في الابتدائية الذي كان يضربك بالخيزران كل صباح حتى تدمى راحتك ويستهزئ بمنظرك. هل نسيت نظرات زملائك في المدرسة وضحكاتهم المستترة لأن ملابسك متسخة. ألا تريد أن تنتقم منهم؟ ".

- أنا... نعم... نعم أريد ذلك.

قال هامسا في أذني: "هل تذكر كم كان صديقك يحبك؟ وكم كنت تحبه؟ ألا يستحق صديق الطفولة أي ردة فعل منك؟ ألا يستحق صديقك الانتقام من هؤلاء الأنجاس؟ لقد وصل السيل الزُّبى إنهم يقتلون أحبتنا وفلذات أكبادنا. يجب أن تنتفض يا كازاخي".

بدأت أسترجع ذكرياتي القاتمة، تحول اليأس لدي إلى عزيمة سلبية. الكراهية كانت تسيطر عليّ والرغبة الشديدة في الانتقام بدأت تتحفز، أذكر جيدا تلك الأنانية التي رفضتني لأني معدم فقير. أهانتني وقالت لي بأنها لا تتشرف بالارتباط بشخص مثلي. كل صديقاتها كن يتهامسن ضاحكات عندما أمر من أمامهن.

لا أخفي أن وساوسه أثرت فيّ وحولت وجهة انتحاري ويأسي إلى منعطف آخر: "يا رجل إذا انتحرت بهذه الصورة المهينة فسوف تقبع إلى الأبد في جحيم لا ينتهي. يا صاح لا تجعل انتحارك غير مثمر بل اجعله سببا في راحتك الأبدية. إذا استطعت أن تفجر نفسك على أعدائنا فسوف نرسلك إلى مكان يحلم به ملايين الناس. إنها فرصة عمرك".

- يا بطل يا سليل الأمجاد لا يفصلك عن تحقيق حلمك سوى الضغط على زر تفجير الحزام الناسف داخل مركز شرطة هؤلاء الأوغاد.

كان يدفعني لمحطتي الأخيرة.

لحظات حتى ضج مسامع البغداديين بصوت انفجار قوي. تناثرت بعده جثث البشر وتقطعت أوصالهم. قتل أفراد الشرطة في المركز والمراجعين وبعض المارة وصاحب الكشك مع ولديه وامرأة تفحمت مع طفلها الرضيع داخل سيارة تقف في مرأب للسيارات قرب المركز. عوائل حرمت من المعيل وأخرى حرمت من رعاية الأم وحنانها. لا تستطيع حروف أي لغة مهما عظمت مفرداتها أن تصف المشهد لكن يبقى التساؤل مطروحا إذا كان الطريق المؤدي إلى الجنة بهذه الدموية فكيف يا ترى طريق الجحيم أم أن الشيطان صور لنا الجنة نارًا والنار جنة؟!

لكن الرجل الأشيب لم يفِ بوعوده وها أنا ذا أعيش في ظلام دامس...

- لقد عالجت الخطأ بخطأ أكبر وبدل أن تتصدى للمشكلة هربت منها إلى الضياع.

قال صوت قادم من الظلمة.

- من أنت؟ ومن أين أتيت بهذا الكلام؟ فقد قال لي ذلك الشخص الذي جلس جواري بأنه سوف يرسلني إلى الجنة.

قلت وأنا لا أرى شيئا في العتمة:

ولكن لماذا أنا لست في الجنة مع النساء المثيرات؟

فعاد الصوت ليثقب أذني بصوته العالي "لأن من أخبرك بذلك هو مجرد كاذب وأوقعك في شباكه... لقد استغل حالة الانهزام التي لديك لينقضَّ من خلالك على أعدائه ويصفي حساباته. أما أنت فمجرد قاتل بدون أجر".

بدأت أشعر بأني أكبر مغفل على وجه المعمورة ولكن عقلي يرفض الاعتراف "مستحيل... لقد قدم لي أدلة".

"أدلة واهية... تقبلها عقلك لأنه كان في حالة منهزمة وقابلة لتقبل فكرة الانتحار. ستحاسب على كل روح أزهقتها أو آذيتها ولن تفلت من العقاب. لا يوجد أحد يقتل مجتمعا كاملا بشكل جماعي بأطفاله ونسائه وشيوخه وشبابه ثم يفلت من العقاب"

انتفضت من سريري فزعا أرتجف من هول الكوابيس التي تحيل منامي إلى حلبة مصارعة. كان بهلول يجلس بالقرب مني ويهمس في أذني كان صوته هو الصوت الذي أعاد لي رشدي وكشف لي الحقيقة ومنعني من السقوط في الهاوية إلى الأبد.

(٦)

الهدوء الذي يسبق العاصفة

كنت أنظر من شباك غرفة الجلوس إلى الصبية وهم يلعبون لعبة "الدعبل"، يأخذ الطفل وضعية القرفصاء ويرتب يده بطريقة ما مستندًا إلى الأرض ويرمي كرات صغيرة زجاجية فيها خطوط ملونة أكبر بقليل من حبة الحمص. يجمعها الصغار في علب معدنية "التنكة". "حسوني" ابن وسام الكبير وأكبر أحفاد "أبو وسام" كان يخطط الدائرة لباقي الأولاد ليضعوا "دعابلهم" في وسطها ثم يبتعدون بضعة أقدام ليرسموا خط "الشش" ومنه يحاولون إخراج الكرات من الدائرة ومن يخرج أكثر عدد منها هو الذي يربح.

كان الطفل الذي في داخلي يتمنى أن يكسر القيود ويقفز من القفص ليجمع "الدعابل" ليجري هاربًا، وحسوني ورفاقه يحاولون اللّحاق به.

فالهروب هو نصف الشجاعة إن لم يكن الشجاعة كلها في بعض الأحيان.

- صباح الخير... تبدو متعبًا "ازاد"، هل عاودتك الكوابيس من جديد؟

قالت "رواسي" وقد لحظت التعب في وجهي كأني صارعت غولًا ليلة أمس.

- نعم الكوابيس تدمر خلايا عقلي وتشوش كل مفاهيمي...

- حاول أن تفهم الرسائل التي تصلك مع الأحلام فقد يكون سيد الرمال المتحركة مثل: روبن هود يطبق العدالة بمفهومه خارج إطار الدولة...

كان أسلوب "رواسي" هذه المرة مختلفًا تمامًا كأنها شخص آخر، في هذه الأثناء استيقظ ديسمند. استغللت فرصة انشغال رواسي بمساعدة نساء البيت بإعداد الفطور فطلبت منه أن يجلس بجانبي وأخبرته أن "رواسي" دخلت المرحلة الثالثة من اللعنة.

صعق ديسمند وظل يقلب الراح بالراح.

بعد أن فقدت ذاكرتها بدأ سيد الرمال المتحركة بإعادة تشكيل قاعدة البيانات في الدماغ. عقل رواسي الآن مثل عقل الطفل يجمع البيانات ليكون مراجع رئيسية يرجع إليها للمقارنة ويبني على أساسها تصوراته ويتخذ قراراته.

- تفضلوا، الفطور جاهز يا شباب.

كان الفطور يحتوي على بيض وكل مشتقات حليب البقر والجاموس، اللبن الخاثر "الروبة" و"القيمر" والزبد والدهن الحر، كما كان على المائدة الخبز الحار والشاي العراقي بالهيل الذي وضع على الفحم قبل فترة.

كان أبو وسام يقرب الطعام إلينا ويستبدل بالأطباق الفارغة أخرى مملوءة لكنه كان ينظر إلى ديسمند باستهجان وهو يأكل بطريقة غريبة فهو لا يعرف كيف يصنع "اللقمة" ويأكل بالشوكة والسكين.

بعد أن أكملنا طلبت من صاحب الدار أن نحمل "قوري" الشاي ونختلي نحن الثلاثة في البيت الصغير المنزوي لنناقش خطة الدخول إلى بابل القديمة.

"مدينة بابل مدينة قديمة جدًّا تكاد تكون من أوائل المدن النظامية في العالم، ولكنها أصبحت عاصمة بلاد ما بين النهرين في عصر الملك حمورابي الذي سنّ أول قانون للبشرية في مسلته الشهيرة ثم وصلت المملكة البابلية أوجها في أيام حكم الملك الكلداني نبوخذ نصر حيث تقدمت العلوم والثقافة بشكل كبير...

هناك عبارة تقول إن التاريخ بدأ في بابل وسينتهي في بابل.

قلت وأنا أحتسي الشاي المميز الذي أعدته رواسي: "معلومات تنشط الذاكرة".

قالت وهي تصب الشاي لديسمند وتستمع إليّ باهتمام: كان الملك نبوخذ نصر يعشق زوجته اميديا بجنون. كانت فائقة الجمال كأنها فاتنة هربت من لوحة سريالية رسمت بدقة متناهية. كانت اميديا تحب الجبال والغابات التي تربت فيها وعندما جاءت إلى بابل كانت أرضًا سهلية منبسطة فحزنت كثيرًا وأصابها السقم.

- "واو ... قصة ممتعة. أكمل يا ازاد، فقد شوقتنا".

قال ديسمند وهو يجد صعوبة في التعامل مع طعامنا وشاينا وحتى ناموسنا الذي أصبح شرسًا جدًّا في الأماكن الريفية والمزارع وطور وسائل الهجوم والمراوغة مثل طائرة "الأباتشي".

ارتشفت رشفة من كوب الشاي وأكملت: "من كثرة شغف الملك بزوجته قرر بناء مدينة تشبه مدينتها التي عاشت فيها سميت فيما بعد بالجنائن المعلقة لأنها تظهر من خارج الأسوار كأنها معلقة في الفضاء. البناء والتصميم الباهران وعملية نقل الماء إلى الأعلى ضد الجاذبية بدون

مضخات جعل مدينة بابل أعجوبة من أعاجيب الدنيا وحيرت الباحثين، البعض منهم يعتقد أن كائنات فضائية ساعدت سكان بابل في بناء مدينتهم في حين البعض الآخر قال إنها مجرد مدينة من خيال البابليين ولا وجود لها على أرض الواقع. مئات الأساطير نسجت حول هذه المدينة البعض يقول إن هاروت وماروت كانا يستخدمان بئرًا في وسط المدينة في السحر".

- وماذا عن بوابة عشتار؟

لبابل ثمان بوابات أشهرها بوابة عشتار الضخمة والتي تحتوي على ٥٧٥ شكلًا لوحوش كاسرة يعتقد أنها تحرس المدينة منها أسد بابل وسيروش التنين والثيران والأسود ولكن أشرس وأخطر هذه الكواسر هو مشخشو.

- مشخشو؟... ما هذا الحيوان؟"

قالت رواسي.

حيوان بقدمي قط من الأمام ومخالب نسر من الخلف ورأس تنين لا يحتاج سوى ثوانٍ ليمزق فريسته...

قاطع نقاشنا تقرير عاجل ظهر في التلفاز يتحدث عن آخر التطورات عن سير العمليات مفاده أن سيد الرمال المتحركة سيطر على أغلب أجزاء العراق. الناس مرتعبة من هذا التقدم السريع، هو يزحف بخطوات ثابتة نحو بغداد.

أضاف التقرير أن كل أجهزة السيطرة في المقاتلات الحربية يصيبها الشلل التام بمجرد التحليق فوق الأراضي التي يسيطر عليها.

طلب ديسمند من رواسي أن تكشف ساقها لكي نرى الخريطة لكنها لم تجبه فألح عليها دونما قصد ولكنها غيرت الموضوع أكثر من مرة وهو لم يدرك الإحراج الذي سببه لها حتى تدخلت أنا وطلبت منها تصوير الخريطة وتأتي بها إلينا. كان حلا منصفا فهرولت تفعل ذلك في غرفتها لكن علامات الدهشة ظلت بادية على وجه ديسمند الذي لم يعِ ما قلته لها ولماذا استترت منا. كان ينتظر مني جملة توضيحية تفك الرموز المبهمة.

- يا صاح، نحن قوم نغار ونساؤنا تخجل، ونؤمن أن مفاتيح الجمال في خجلهن.

وضعنا صور الوشم على الطاولة وبدأنا نضع خطة الدخول. استخدمنا قاموس الشياطين لفك رموز الخريطة. كان الوشم يشير إلى أن الخريطة موجودة في معبد البابليين الذي يسمى "أي ساغ ايلا" في وسط المدينة. المعبد يحتوي على تماثيل وبئر عميقة يسمى "مذبح النذور". خطتنا تقتضي أن نمر من خلال بوابة عشتار مرورًا بشارع المناسبات وصولا إلى المعبد في ثلاثين دقيقة. نلبس فيها واقيات الآذان وبدلات التخفي.

- إذا وضعنا واقيات الآذان كيف سيسمع بعضنا بعضا؟ أقصد كيف سنتفاهم؟

قالت رواسي.

- إني أفكر في حل قد ينجح.

قال ديسمند.

- أسعفينا به...

قالت رواسي.

"- بسبب أصوات القاذفات والانفجارات العالية نضطر لنتعلم حركات وإشارات معينة في الجيش للتفاهم، مثلا إذا رفعت ذراعي مع يد مقبوضة معناها توقفوا وهكذا بقية الإشارات قد تنفعنا في التفاهم. هذه اللغة تسمى تواصل الطرشان أو لغة الطرشان".

قال ديسمند وهو يوضح لنا كيف تعمل لغة الإشارة.

- واجهتنا مشكلة أخرى وهي كيف نرى أيدي بعضنا البعض ونحن متخفون كالأشباح لكن خبرة ديسمند العسكرية أسعفتنا من جديد وحلت المشكلة. بدلات التخفي صنعت للجيش الأمريكي بسرية وبأعلى المواصفات من قبل شركتين أمريكية ويابانية مشتركة، وتمتلك مميزات عديدة منها أن من يرتدي هذه البدلة يستطيع الضغط على أي جزء من جسمه مرتين فيظهر للعيان وتلغى خاصية التخفي ولو ضغط مرة واحدة لعاد الجزء مخفيا كما كان. كما أن البدلة تحتوي على نظام مشاركة الموضع كمجموعة. يمكن ضبط مجموعة معينة ومشاركة الرسائل والموقع أيضا.

- أنت المنقذ ديسمند. ما أروعك!

قلت بحماس.

- لنجرب مميزات البدلة... سألبسها حالا...

قالت رواسي وهي تجري نحو البدلات.

بينما بدأ ديسمند بإعداد قائمة بالإشارات الرئيسية للتفاهم فيما بيننا لنتجنب أي خطأ في التواصل فالأخطاء ممنوعة في مثل هذه المهمات.

- أنا مختفية تماما، هل يستطيع أحد أن يجدني؟

قالت وهي تنظر إلى نفسها في المرآة فلا تجدها.

- أين أنت أيتها الشقية؟

قلت وعيناي تفتشان عن خيال رواسي يمينا ويسارا دون جدوى.

- أنا هنا قريبة جدًّا منك... هل تشعر بأنفاسي؟

كانت تهمس لي والهواء الدافئ الخارج من فمها يلامس شحمة أذني. تجمدت في مكاني واضطرب جهازي العصبي واحمرّ الصيوان. لم أشعر بهذا الشعور أبدًا في حياتي.

لاحظ ديسمند اضطرابي فحاول التدخل لتدارك الموقف ومنع حصول أي ردود أفعال غير مدروسة العواقب

- " هذه البدلة فعالة جدًّا ... رواسي هل من الممكن أن تضغطي مرتين على أي جزء ليصبح مرئيا؟"

ضغطت على ذراعها مرتين فبانت يدها للجميع.

عدنا إلى الطاولة نراجع الخطة ونتدارس الإشارات التي تنظم قنوات التفاهم بيننا لكني لم أعد أحتمل لجم شعوري تجاه تلك الفاتنة واسعة العينين. لقد ضيعتني تفاصيلها دقيقة الصنع كبحار عتيد تحدى الموج الهائج وغرق في غياهب البحار. يجب أن أقول لها بأن أفخر أنواع النبيذ الأحمر مصنوع من العنب المتدلي من وجنتيها، أما الشامة التي في ذقنها فهي مثل الأثلة وسط الصحراء. عيناها قصتهما مختلفة فهما مثل بابل الحضارة تبدأ منهما وتنتهي إليهما ومن يطيل النظر إليهما كأنما يرتشف الجرعة الأولى من الهروين ويضع أول خطوة في طريق الإدمان. يجب أن أكلمها.

جمعت كل قواي وثرت على حالة الانهزام والفوضى التي أعيشها كلما رأيتها. جلبتُ هاتفي النقال وأرسلت لها رسالة:

" - هل تعلمين أن سحر عينيك أصاب الفؤاد بسهم باخع؟"

وضعت هاتفي جانبًا؛ كان قلبي يرتجف وأنا أنتظر ردة فعلها. لحظات قليلة ثم أصدر هاتفها صوتا.

كنت أتابع عينيها وهي تقرأ الرسالة وأحلل تقاسيم وجهها. هل ستفرح؟ هل ستخجل في صمت؟ هل وهل؟ سؤال يحيط في سؤال ليشكل في لحظات متاهات داخل متاهات. إنه الحب... نعم لماذا أراوغ وأداري شيئا محقق الحدوث أراه في دقات قلبي واحمرار أذني ووجنتي وحتى تصرفاتي التي ما تنفك تفضحني في كل مجلس ومكان.

رمت الهاتف من يدها وضحكت ثم استمرت تضحك بهستيريا بدون توقف حتى كادت تسقط من مقعدها. تعرقت من شدة الإحراج وشعرت أنها تستهزئ بي وبرسالتي وبمشاعري. كان إحساسا لا يوصف. غيوم سوداء جعلت نظري قاتمًا فهممت بالنهوض وغادرت الطاولة بشكل ملفت للانتباه.

قصدت شرفة المنزل. كنت بحاجة إلى تجديد الهواء وتدخين سيجارة تعطيني مهدئا موضعيا عاجلا.

- ازاد... أنا آسفة.

قالت رواسي وقد لحقت بي وتوقفت بضع خطوات خلفي.

- لا شيء يستدعي أسفك. في النهاية هي رسالة تافهة أفضل مكان لها هو سلة المهملات في هاتفك.

قلت ولم أستدر إليها وواصلت تدخيني.

" - صدقني لم أعرف لماذا ضحكت... اختلطت لدي وتداخلت مشاعر الغبطة والفرح والإثارة والذهول فضحكت من كل أعماقي. وسط الزحام الفكري الذي يعتريني جاءت رسالة أحسست أنها كتبت بلغة غريبة عليّ لم أعهدها مسبقا، تخيلت أن فارسا يمتطي فرسًا أبيض أهدى لي هذه العبارة. أكرر أسفي من جديد".

قالت وقد شعرتُ بصدق كلامها من صوتها فانطفأت الحمم التي بداخلي وغدت مروجا خضراء تنبت ورود غارديني وجلنار. أدركت وقتها فقط كيف يحيل الكلام الصادق المحمل بالمحبة والتسامح نار الحقد والكراهية إلى رماد.

- لا تشغلي بالك فقد نسيت الموضوع...

قالت وهي تجلس على سياج الشرفة تنظر إلى مغيب الشمس-شعرت أنها كانت تدعي الله وتطلب منه شيئا ما في وقت الغسق-: "هل تعتقد أن الأمر سينجح؟".

لم يعد لدينا أي خيار آخر. إنها مسألة وجود... سيد الرمال المتحركة يزحف إلى بغداد وقوته تزداد. لا بد أن نردعه.

جلست في الزاوية المقابلة لها من الشرفة أفكر في خارطة توزيع الشخصيات التي تحيط بي فالجانب الأمريكي لا أمن ولا أمان له تتقلب مواقفهم حسب الظروف والمستجدات فلا ثابتهم ثابت ولا متغيرهم متغير حتى رواسي إذا تركت العاطفة جانبا وفكرت بالعقل فإن هناك احتمالا كبيرا أن تكون شريكة من نقاتله أو على أقل تقدير تربطها علاقة ما وبكيفية ما به.

لم يفهم ديسمند ما حدث بيننا أو تغافل عما حدث لكنه قاطعنا ليخبرنا أن تقريرا عاجلا آخر تسابقت في بثه القنوات المتلفزة يؤكد أن صاحبنا اتسعت رقعة نفوذه خارج العراق فلعنته قد أصابت أهدافا في الخليج وأمريكا. محللون رجحوا أن بعض الجراد انتقل مع الجنود العائدين إلى الوطن فقد سجلت حالة انفجارين انتحاريين في أميركا خلال ٤٨ ساعة الماضية. أحدهما فجر نفسه في سوق كبير والثاني كان يقود شاحنة ودهس المارة بلا استثناء في شارع مكتظ وقتل منهم العديد قبل أن يقتله الحرس.

لكن رواسي بررت هذه الأعمال بأن الظلم والقسوة هما ما دفعا الانتحاريين للتضحية بأنفسهما ليوصلا لنا رسالة معينة مثلما فعل ذلك الرجل في تونس عندما أحرق نفسه واندلعت الثورة في تونس والوطن العربي على أثر تلك الحادثة. لكني كنت أعتقد غير ذلك وأراها كالذي يقول كلمة حق أريد بها باطل فالذي أحرق نفسه كان مضحيا بها تعبيرا عن اعتراضه على الظلم لكنه لم يؤذ أحدا بفعلته وبالتالي لا يمكن مقارنته بأي حال من الأحوال مع الذي يفجر نفسه ليقتل الآخرين.

أهلا بالحرب العالمية الثالثة ... حرب الأفكار الفتاكة. أهلا بصدام فكري لا هوادة فيه يدوس على القيم والفطرة الإنسانية.

كل ما تحتاجه لتنفذ مخططا ما في الشرق الأوسط أن تتبرع ببناء دار عبادة وتعين شخصا ليصبح رجل الدين المسؤول عن هذه الدار وتلبسه كل "الإكسسوارات" اللازمة لتظهر عليه الوقار والهيبة، ثم تنتظر إلى أن يأتي أشخاص يعانون من أزمة نفسية أو اكتئاب حاد يهربون من قسوة الحياة ليركنوا إلى ذلك المكان بحثا عن السلام والسكينة فيجدوا العنكبوت قد

حاك شبكته بإتقان فيحول ألمهم واكتئابهم وأجسادهم إلى قنابل موقوتة يوجهها حيثما يشاء وبيده جهاز التحكم عن بعد.

-هل تريد النوم؟

قالت رواسي لي. كنت أتمنى أن أقول لها "نعم" وأركض نحو الوسادة وأحضنها وأنام حتى يسيل اللعاب من فمي من عمق النوم بلا هم ولا غم ولا كوابيس مثل طفل يشرب "ماء غريب" فيضحك وهو يغفو في حضن أمه حتى تظهر غمازاته "رصعاته" كنقش سومري. تقول جدتي "هدية" بأن الطفل يضحك عندما تداعبه جنية أو يمر من أمامه ملاك. كم أدفع من عمري كي أحصل على هذه الضحكة من جديد. قررت رواسي أن تظل هي الأخرى مستيقظة تصارع نعاس عينيها لأن الأحلام المزعجة تفتك بها كما تفعل معي.

- سأعد الشاي بالهيل. هل تشرب معي؟

سألتني في الوقت الذي كنت أحتاج إلى جرعة كبيرة من الكافايين تبقيني أقاوم السهاد.

كنت حريصا على أن أنشط ذاكرتها عساها أن تتذكر الأحداث المشتركة بيننا. ذكرتها كيف ذهبنا إلى مطعم للفلافل وسط بغداد وحدث ما حدث هناك. رغبت أن أزرع شيئا في عقلها مقابل ما يزرع سيد الرمال المتحركة.

كانت تحدثني عن المناظرة الشعرية وأنها أحبتها كثيرا واستمتعت بالأجواء. كان أسلوب أبو وسام رائعا في إلقاء القصيدة خاصة في الشعر

الشعبي. والشعر الغزلي كان جميلا. طلبت مني أن أقول بعضا مما أحفظ من القصائد.

- ماذا تحفظ من الشعر؟

- أغلب الشعر الذي أحفظه ناقدٌ للسياسة.

- مثل ماذا؟ اسمعني.

قالت وهي تذيب السكر في كوب الشاي.

كنت أحاول أن أتذكر شيئا ما "مثل ماذا؟ مثل ماذا؟ "

يرتدي شعبي شوكا
والجنائن بابلية
لاجئ ومشرد
وهو باني الأبجدية
أتعيدون بلادي
إلى العصور الحجرية؟
أتعيدون عراقا
كان مهدا للبشرية؟
أتبيحون دماء
يشهد الله زكية؟
واحد بلدي موحد
منذ فجر الأبدية
واحد شعبي ويبقى
ارحلي يا همجية

قالت مستمتعة بالقصيدة: "لمن هو؟"

- الشاعر كريم العراقي...

- هل من يدافع عن الدين والوطن يعتبر همجيا ورجعيا؟

- لا بل من يتاجر بالدين وقضايا الوطن هو الهمجي. من يستخدم العنف لفرض رأيه هو الهمجي.

على الرغم أن أمريكا هي من استخدمت ترسانتها العسكرية لتفرض إرادتها على الشعوب لكن الخطأ لا يعالج بخطأ أكبر منه وضحيته آلاف الأبرياء... غاندي حرر الهند بدون قتال ومارتن لوثر كنغ حرر السود وساوى بينهم وبين البيض في أميركا بدون أن يحث على العنف... ألمانيا توحدت بدون عنف... اليابان أصبحت قوة عظمى بدون جيش... في كل مجتمع هناك الجيد وهناك السيئ كان دائما جدي يقول "ماكو زور يخله من الواوية".

- أنا ضد العنف في تحقيق الأهداف... أنا مع زرع المحبة في قلب الناس فتزهر وتثمر قلوبهم سلاما.

قلت ونظرت إليها فوجدتها تغط في نومها. تمنيت لو سمعت على الأقل جزءا من كلامي. غطيت قدميها بغطاء خفيف وبحركة عفوية أمسكت يدي: "لا تتركني ازاد للوحوش الكاسرة البرية. أنا لا أملك الآن شخصا غيرك".

- عهد مني ألا أتركك أبدا... همست في أذنها وقبلت جبينها.

أمضيت الساعات المتبقية من ليلتي جالسا أفتش في الشبكة العنكبوتية عن حضارة بابل والحضارات في بلاد ما بين النهرين. كانت المرأة

لها مكانة مميزة في تلك الحقبة فمرة تكون إلها تعبد مثل عشتار، ومرة ملكة تطاع مثل سميرميس وغيرها حتى في الحرب كانت تقود العربة المقاتلة في ساح الوغى كما لوحظ في بعض الألواح الطينية المتبقية من ذلك الزمن.

سألت السيد جوجل: "ماذا أفعل لو التقيت بالوحش مشخشو؟"

كانت الإجابة مقتضبة جدًّا "قف مكانك مثل الجماد ...لا صراخ ولا هرب...لا تتحرك مهما حدث" قلت في نفسي "يبدو الأمر سهلا".

وأخيرا أشرقت شمس الصباح بنورها على الرغم من أنني شعرت بنوع من الطمأنينة فلم تزرني الكوابيس ليلة أمس، ولكني افتقدت بهلولا. كان يساندني دائما على الرغم من أنى أشك في أنه شخصية حقيقية مثل الكثير من الشخصيات الوهمية التي زرعت في تاريخنا لتبرر بعض الأفعال والتصرفات الدنيئة فنقول "إن البطل الفلاني فعلها" فنبرر فعل رغباتنا ونرشو النفس اللوامة التي في داخلنا أو لنجعل من هذه الشخصية مؤثرا معنويا يزيد من صمودنا وصراعنا على مختلف الأصعدة.

"لحظة ... ما زالت لدي أمنية واحدة لماذا لا أطلب منه أن يخلصنا من سيد الرمال المتحركة وأتباعه" وبلا تردد ذكرت كلمة السر " هاموش ماهوش بلتوش منتوش" فظهر لي بهلول.

- كيف حالك يا صديقي؟ لم أرك منذ مدة لقد افتقدتك...

- لم تعد أمنيتك الأولى تصمد أمام قوة صاحبنا. لديك وقت محدد وكل دفاعاتك ستنهار. عاجلا أم آجلا ستدخل المرحلة الثالثة من اللعنة.

كان بهلول متشائما وهو يقرأ المستقبل

- نصيحتي إليك ألا تثق بأحد... أي أحد حتى أنا ...

- أنت تخيفني...

- بل أحذرك.

طلبت من بهلول أن ينهي وجود سيد الرمال المتحركة كأمنية ثانية. لكن بهلولا رفض الطلب لأن أمنياتي كانت محصورة في الخير فقط وقال لي "إن الأمور لا تحل بالتصفية والإقصاء. كل المخلوقات تمتلك خيرا وشرا في داخلها. قد يتغلب الشر في هذه الجولة والخير في تلك فالإنسان مبني على الأضداد".

- لكن صاحبنا يدعو للشر. ماذا لو احتل العالم وحل الظلام والتخلف كل البقاع؟

- هذا الموضوع خارج صلاحياتي.

قال ثم اختفى...

(٧)

العزيف

جاء وسام إلينا راكضا يلهث مصدوما من أهوال ما شاهد. يبدو الأمر مريبا كان كلامه متقطعا فهو يلتقط أنفاسه ويرسل الكلمات فتتصادم الحروف مع هواء الشهيق والزفير السريعين عند مدخل فمه " ازاد، يجب أن تأتي إلى البيت الكبير وتشاهد ما يحدث".

رجلان وامرأة من أقارب أبو وسام هم كل ما تبقى من قرية صغيرة تقع على الجانب الأيمن لنهر الفرات وتسمى "هور حسين" في قضاء جرف الصخر جنوب غرب بغداد، غالبية سكان هذه القرية مزارعون يمتلكون بساتين نخيل وفواكه ويزرعون المحاصيل الحقلية مثل الحنطة والشعير. استيقظ الأهالي كعادة كل صباح ليتفقدوا محاصيلهم لكن تفاجأوا أن الجراد أكل الزرع وسنبله وانتشر في أزقة المدينة وأسواقها وبات يدخل إلى البيوت من أي شق حتى وصل غرف النوم. أصواتها النشاز ملأت المكان فأحالته إلى قرية يسكنها الأشباح. "أبو كاظم" وهو أحد الناجين يروي كيف أن القتل أصبح مباحا ومشهدا يوميا، رجل يقتل زوجته وابن يدخل ليلا ليقضي على عائلته بالكامل قبل أن يحرق نفسه.

- عمري تجاوز السبعين ومرت عليّ مصائب ومحن كثيرة لكن لم أسمع ولا أعتقد أنني سوف أسمع بأن أمًّا تضع السم لأولادها وزوجها

وتتلذذ بمشاهدتهم وهم يتقيؤون دما حتى قضوا. إنه عمل ضد فطرة البشر ضد إنسانية البشر. هناك خطب ما غير صحيح.

أبو وسام كان ينظر للموضوع من جانب آخر فهو يعتقد أن السيطرة على جرف الصخر تحول نوعي في الحرب ففي هذه المدينة يوجد منشأة لتصنيع الأسلحة البيولوجية.

- ماذا لو سيطر سيد الرمال المتحركة على هذه المنشأة وبدأ يستغل معداتها لتطوير أسلحة قد تكون فتاكة وخطرا على العالم بأسره؟

لحظات من الذهول هيمنت على الجميع...

بغداد أصبحت في مرمى هذا المجرم فجرف الصخر لا تبعد سوى عشرات الكيلو مترات عن عاصمة الرشيد وهو يحاصرها من كل جانب.

- ولكن كيف هربتم أنتم وهلك الجميع؟

سألت أبو كاظم ومرافقيه لكنني لاحظت الارتباك أصابهم من سؤالي...

- نحن لم نكن...

كانت "أم كاظم" تنوي الإجابة ولكن أبو كاظم قاطعها " لقد لبثنا في السرداب عدة ساعات حتى أيقنا أن الطريق سالك فهربنا إلى هنا".

- هل نسيت أبوك يا ازاد ...

إياك أن تصبح عاقا ولا تلبي طلبي...

أنا أريد أن تأتي إلي لنعيش سويًّا هنا ...

كان صوت أبي يأتي من مكان ما ليستقر صداه في أذني.

-أبي ... أبي

كنت أفتش عن الصوت بين الحاضرين لكني لمحت حسوني جالسا على "درجات" السلم يختلس السمع لحديثنا وعيناه جاحظتان لا ترمشان فوضعت يديّ على أذني وصرخت "ليضع كل من يسمعني يديه على أذنيه فجراد سيد الرمال المتحركة في مكان ما هنا وتصدر أصواتها الخبيثة".

أبو سام لم ينصت إلي وأحضر بندقية الصيد "الكسرية" وبدأ يفتش أقاربه محاولا إيجاد مصدر الأصوات حتى فتح حقيبة أم كاظم، كان الجراد مكدسا فيها فانتشر في كل مكان.

- فليهرب الجميع أنا سوف أحتجزهم...

كان أبو سام يصرخ ويطلق النار على الجراد بشكل هستيري وهو يصرخ "اهرب يا ازاد ... وعد إلينا ومعك الوسيلة التي تخلصنا من هذا الشر... اهرب بسرعة ولا تلتفت إلى الوراء".

هربت بالسرعة القصوى مذعورا حتى وصلت البيت الصغير.

- ديسمند ... رواسي ضعا واقيات الأذن بسرعة لنهرب من هنا... لقد أصبحنا مكشوفين للعدو.

- ماذا حدث؟

- سوف أشرح لكما في الطريق يجب أن نصل مدينة بابل القديمة بسرعة.

ما بين الركض والسير السريع وصلنا متخفين إلى مدينة بابل لكني كنت أفكر في عائلة أبو وسام، هل نحن الذين كنا السبب في جلب الويلات والجراد لهذه العائلة؟ أم أن سيد الرمال المتحركة كان سيصل إلى تلك المناطق عاجلا أم آجلا بوجودنا أو من غيره؟ وما هو مصيرنا إذا طور

أسلحته البيولوجية؟ كل هذه التساؤلات وضعتها في غرفة الانتظار وركزت على مهمة الحصول على كتاب العزيف فأنا أمني النفس بالآمال أن يحل هذا الكتاب الكثير من المبهمات ويغير المعادلة.

ديسمند كان دليلنا ويوجهنا بين الحين والآخر بيده اليمنى في حين كنت أنا في المؤخرة ورواسي بيننا. دخلنا من بوابة عشتار التي كانت عظيمة أسوارها تزدان برسوم الوحوش الفتاكة التي يعتقد أنها تحرس المدينة ولكن كان مشخشو الأكبر والأكثر رعبا. أشار إليّ ديسمند بألا أتأخر عنهما فعجلت المسير.

مررنا بطريق الاحتفالات الذي هو بموازاة نهر الفرات يقسم مدينة بابل إلى نصفين وتجاوزنا القصر الملكي ومعبد آشور. الصمت كان مطبقا ومخيفا حتى وصلنا المعبد في عشرين دقيقة. وفقا للخطة فإن الكتاب في منتصف المسافة ما بين تمثال مردوخ وحفرة النذور العملاقة.

بدأنا الحفر هنا وهناك، وبعد أن احمرت أكفنا من الحفر وجد ديسمند صندوق أنتيكا. لم يكن يحتوي على كتاب العزيف الذي نبحث عنه بل كان مليئا بالمجوهرات والمقتنيات الملكية التي لا تقدر بثمن.

أرادت رواسي أن تحتفظ بعقد فخم يدوي الصنع، لكني لم أؤيدها. كنت أعتقد أنها فكرة غير صائبة فنحن لا نعرف لمن تعود هذه المقتنيات. أيد كلامي ديسمند حتى تخلت رواسي عن الفكرة على مضض وكأنها تخالف قانونا أساسيا من قوانين النساء.

كنا نحفر مثل دودة الأرض. بعد حوالي ساعة من الحفر المتواصل وجدنا كتاب العزيف. كان مغطى بقطعة من الجلد لتحميه. قلبت أوراقه

على عجالة. كانت نقاط الدم تملأ صفحات الكتاب بالإضافة إلى طلاسم ورسوم شياطين وجن. أخذته وهممنا بالخروج ولكن الفضول دفعني لألقي نظرة على تلك الحفرة التي يرمى فيها الحيوانات وحتى البشر كقرابين للإله. كانت سحيقة في العمق وشديدة الظلمة.

"لنذهب من هنا".

أشار إليّ ديسمند.

عندما خطوت أول خطوة للخروج شعرت أنى سحقت شيئا تحت قدمي. كانت جرادة، أحسست أن سيد الرمال المتحركة قريب منا. أشرت إلى ديسمند ورواسي أن يتوخيا الحذر لكن الوقت قد فات. أكوام من الجراد تدخل علينا من كل حدب وصوب وصاحبنا هو ورجاله يحاصرون المكان.

- أهلا بالأبطال... هل من الممكن أن تعطوني الكتاب وتجعلوا الأمر سهلا عليّ وعليكم؟" قال وجنوده يحاصروننا ويشكلون دائرة نحن مركزها. كانوا قذري الملابس وعيونهم حمراء تتطاير الشرور من حدقاتها.

- كيف عرفت أننا هنا؟

سألته بتعجب ولكن دهشتي زالت بمجرد أن ظهر المحرك الخفي للأحداث إنه الذئب. تفاجأ الجميع من وجود الضابط ابرا بجوار سيد الرمال المتحركة. كان قد وضع شرائح تعقب في بدلاتنا وبالتالي أصبحنا أهدافا مكشوفة له ولسيده أو لعبده. لا نعرف التسلسل الإداري بينهما بعد. وصلت جرادة واستقرت فوق حذائي وتسلقت الأخرى على قميصي ووصلت ثالثة إلى كتفي. كنت أحس بأهدابها تلامس جلدي حتى وصلت

قريبة جدًّا من أذني. بنفس الكيفية كان الجراد يحاصر رواسي وعيناها تتوسل بأن ينقذها أحد لكن الأمر كان مختلفا عند ديسمند. كان ينظر إلى الضابط ابرا بشكل يدعو إلى الريبة. كان ينوي فعل شيء قد يكون فيه نوعا من التهور. حاولت أن أتدارك الموضوع. أخرجت ولاعة كنت أحتفظ بها مع علبة السجائر في جيبي وصرخت:

- سوف أحرق الكتاب إذا تحرك أحدكم من مكانه... اسحب جرادك يا سيد الجراد...

أشعلت النار من الولاعة وقربتها نحو الكتاب. رضخ لتهديدي وسحب جراده. نزعنا واقيات الأذن وطلبت من ديسمند ألا يفعل أي شيء ويبقى في مكانه لكنه لم يصغ إلي. كانت رغبته في الانتقام من الضابط ابرا تفوق قدرته على الاستماع. ركض نحو الضابط محاولا الانقضاض عليه ولكن سيد الرمال المتحركة أخرج مسدسه وأطلق عليه النار فأصابه في كتفه.

- ديسمند ... لا ... لماذا فعلت ذلك أيها المجرم؟

صرخت بوجهه لكنه سحب رواسي إليه ووضع المسدس على رأسها. في خضم هذه الأحداث كان أحد أتباعه يطالع المجوهرات والمقتنيات في الصندوق وبدون أن يشعر أحد وضع عقدا في جيبه. لم يكن هو يعرف ولا حتى نحن أن هذا الصندوق تحرسه وحوش بابل التي بدأت تخرج علينا من كل فج عظيم.

أحد الوحوش حطم الحائط المجاور لي ووقف أمامي كان ضخما وعيناه تحترف الافتراس كان ذلك الحيوان مشخشو. تجمدت في مكاني حتى أني قطعت التنفس. اقترب وجهه من وجهي حتى كاد يلامسه وزفيره يحرق

وجنتي. أصيب الجنود بالذعر فبدأوا يطلقون الرصاص بشكل عشوائي. مما أثار غريزة مشخشو الافتراسية. أدار وجهه عني ليبتلع أتباع سيد الرمال المتحركة الواحد تلو الآخر ولكنه ضربني بذيله ضربة أفقدتني توازني فهويت في بئر النذور السحيق.

كان قعر البئر معتما وبارداورطبا حتى إني لا أستطيع أن أرى يدي. شعرت أن عظام ساقي قد تهشمت ولم أعد أقدر على الحراك. كنت أسمع إطلاق نار كثيف فوق وصياح الرجال والوحوش تبلعهم وتكسر أضلاعهم حتى عم السكون بعد فترة. فعّلت خدمة الضوء في هاتفي النقال ووجهته نحو أعلى البئر لعل أحدا يجدني قبل أن تنفد البطارية. حتى في هذه اللحظات الصعبة لم أشأ أن أستخدم أمنيتي الأخيرة لأني كنت واثقا أن رواسي تحتاج لها أكثر مني وأنا وعدتها أن أحميها. كان وقتا عصيبا عليّ. أصبحت عاجزا كما أنني لا أستطيع التفكير بأي شيء.

أغمضت عيني واستسلمت للنوم...

استيقظت بعد فترة لم أعد أشعر بألم ساقي. كنت مخطأ حين ظننت أنه كسر في العظم، يبدو أنها مجرد رضوض. أخرجت ولاعتي وأنرت بها هذا الكهف المظلم. هياكل عظمية لمختلف الحيوانات وبعض البشر تملؤ المكان. كان منظرا مفزعا.

- من يا ترى يأكل لحم الجثث ويحيلها إلى هياكل عظمية؟

كانت تساؤلات غريبة تدور في مخيلتي.

بين بقايا البشر والحيوانات وجدت ظل شخص ما... يتكئ على الحائط المقابل لي. " مرحبا... هل من أحد هنا؟" لا أحد يجيب. حاولت الاقتراب منه

فعلى الرغم أن المسافة بضعة أمتار لكن الطريق إليه لم يكن سهلا. كنت أحس بتكسر العظام من تحتي.

- بهلول ... هل هذا أنت؟

كنت أعرف أنه هو ذلك الأشعث الذي طالما انتشلني من كوابيسي، لكن عقلي يرفض التصديق. كان مختلفا قليلا ربما عيناه، لا أعلم.

- لا تقلق يا ازاد، سوف أظل أحميك من أي خطر.

قال لي وهو يضع طفلا صغيرا وجميلا في حجره.

- من هذا الطفل، يا بهلول؟

سألته فأجابني إجابة كانت صادمة لي. قال إن أباه هو سيد الرمال المتحركة. "لحظة ... لحظة إنه نفس الطفل الذي في الصورة التي وجدناها في بيت رواسي" كنت أخشى أن تكون أمه رواسي فأكد بهلول لي أنها هي، وأنهما متزوجان وهذا ابنهما.

أخرج سكينا وقدمها لي: "هل ترغب بالانتقام منه؟"

- بهلول... ماذا تقول؟ أكيد أنك تمزح، إنه مجرد طفل لا ذنب له.

قلت وتراجعت خطوة إلى الوراء متعجبا من طرح بهلول. لم يكن أبدا بهذه الحدة من قبل.

- هو سيكون مجرما بأي حال من الأحوال كوالده. يجب أن نتخلص منه.

كان بهلول يحاول إعطائي السكين وأنا كنت أرفض وأتراجع إلى الخلف. لم أكن أستطيع إيذاء ذلك الطفل على الرغم من كل الأذى الذي ألحقه والده بي وبمن حولي حتى في بلدي والعالم. كان يروي لي العلاقة

الحميمة بين أبوي الطفل. لا أدرى إن كان يختلقها فأنا بدأت أشك في مصداقيته بنقل الوقائع لكن في الحقيقة تولد لدي شعور بالغيرة والحقد " هل فعلا رواسي كانت تحب هذا المجرم وأنجبت منه طفلا؟" هربت من بهلول وقصته التي جعلت الكراهية لدي في أعلى مستوياتها ورجعت إلى مكاني حيث سقطت متضرعا أن يجدني أحد قبل أن تأكلني الديدان كما التهمت تلك الجثث وأحالتها إلى هشيم.

- لا تلمني، لقد أعطيتك الفرصة لتنتقم من سيد الرمال المتحركة الذي شرد شعبك وقتل أهلك وأصدقاءك.

- اسكت... فقط اسكت واتركني وحدي لم أعد أحتمل هذا الضغط.

صرخت في وجه بهلول وبدأت أجهش بالبكاء. كانت قواي تنهار.

- هو الآن مع رواسي يتبادلان القبل والغرام في أحد المنتجعات تحت أشعة الشمس اللاهبة والضحايا والأغبياء من أمثالك تنهش الديدان لحومهم في هذا المكان الرطب المتعفن... بعد عدة سنين سيكبر هذا الطفل ويحذو حذو أبيه ويصبح جزارا يجز رقاب من تبقى من عائلتك.

كان بهلول يتلاعب بمشاعري.

- هل من أحد يساعدني؟ أنا عالق هنا... المساعدة.

كنت أصرخ أريد الخلاص من البئر العالق فيه ومن شر وسوسة بهلول. لم يجبني أحد. وضعت رأسي بين يدي. لم أكن مستعدا لسماع المزيد.

كان هناك شيء يسحب طرف بنطالي. رفعت رأسي فاذا بالطفل يفعل ذلك. وضعته في حجري واستندت على الحائط. دموعي كانت تنهمر. كنت

أسأل نفسي لماذا ابنه يعيش وأصدقائي وأقاربي تتناثر أشلاؤهم بالانفجارات التي يحرض عليها أبوه؟ لماذا هو يعيش وحسوني حفيد أبو وسام يموت هو وعائلته؟ هل سيصبح شريرا مثله عندما يكبر؟ مددت يدي على رقبته الصغيرة ثم سحبتها بسرعة.

- يا إلهي ... ماذا أنا فاعل؟ إنه مجرد طفل لا ذنب له ولا جريرة بما فعل أبوه.

كنت أحاور نفسي والطفل يضحك غير مبال بما حوله وكأنما وجد الدفء في حجري. كان لديه عينان جميلتان تشبه عيني أمه. وبدأت أردد اقتباسا

إذا قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة...

إذا قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة...

إذا قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة...

إذا قابلنا الإساءة بالإساءة فمتى تنتهي الإساءة...

- دعني أخبرك سرا قد يزيل حالة الجبن التي تعتريك وتنتفض روح الانتقام لديك.

قاطعني بهلول وعاد من جديد ينفث سمه في أذني. لا أعرف ما الذي حدث له. نظرت إليه نظرة اليائس الذي لم يعد لديه مخرج. وطأطأت رأسي أنظر إلى ابن رواسي الجميل.

- سيد الرمال المتحركة يقوم بجمع صابون السحر الأسود من "المغيسل" في المقابر ليستحضر الشياطين عن طريق ماء الموتى.

- صابون السحر الأسود وماء الموتى، عماذا تتحدث؟

قلت مندهشا من هذه المصطلحات وقد نجح هو في لفت انتباهي إليه.

لكي يسيطر على الجراد يحتاج أن يذيب الصابون الذي يغسل فيه الميت في إناء ويتركه لمدة عشرة أيام ليتحول إلى ما يسمى بماء الموتى وهو يستخدم لأعمال السحر واستحضار الجن والشياطين وتسخيرهم لأغراض معينة. يمكن عمل أخطر أنواع السحر من هذا الصابون والذي يسمى صابون السحر الأسود بعد أن يقرأ عليه بعض العبارات.

- الآن عرفت سر وضعه لكوب من الصابون عندما كان في سجن قاعدة الصقر.

يحتاج سيد الرمال المتحركة أن يجمع كمية كبيرة من صابون السحر الأسود لينفذ مخططاته ويسيطر على أكبر عدد من الشياطين ويدخلهم بالجراد ومن ثم يرسلهم إلى الناس. لقد أرسل أتباعه إلى مقبرة وادي السلام أكبر مقبرة في العالم ليقتلوا أصحاب الأماكن التي يغسل فيها الموتى والتي تسمى محليا "المغيسل" ويأخذوا صابون السحر الأسود منهم. إنه ينوي بناء مرجل كبير يذيب فيه كل الصابون ويجمع أعدادا هائلة من الجراد.

- ازاد... سيد الرمال المتحركة سيحتل العالم قريبا يجب أن تقتل ابنه لكي لا يرث هذا الفكر المتطرف.

قال بهلول وهو يلاحظ تأثير كلماته عليّ. وضع السكين بقربي ثم ذهب، كنت فعلا أساور نفسي بقتل الطفل مبررا أني قد أموت هنا ولا أحد ينقذني بسبب أبيه لكني تعوذت من الشيطان وقلت في قرارة نفسي: "من منا له الحق في أن يحاسب الناس؟ من منا له الحق في أن ينزل العقاب والقصاص؟ من منا بلا خطيئة ليحاسب الناس على خطاياهم؟"

صوت من بعيد كان يناديني... صوت دافئ يشبه صوت أبي. ركضت نحو مصدر الصوت وأنا أتعثر بعظام الميتين...

- أبي... أبي... أين أنت؟

اقتربت من الصوت أكثر فأكثر حتى وجدته. كان مستاء مني وغاضبا إلى درجة أنه كان لا يرغب في النظر إلي طلبت منه أن ينظر إلي لكنه أبى وطلب مني أن آخذ بثأره ممن قتلوه وجعلوني يتيما. كان يقول لي: "لا تجعل دمي يذهب سدى اقتلهم كلهم، اقتل صغيرهم وكبيرهم انتقم ممن آذاني وآذاك".

- من هم يا أبي الذين قتلوك؟

صمت لبضع ثوان ثم أشار بسبابته إلى الطفل.

- هذا هو ابن المجرم.

- لكن انظر إليه، إنه مجرد طفل...

اقتربت منه فرفع رأسه. إنه بهلول كان يقلد صوت أبي. تقهقرت وسقطت أرضا من صدمتي وأنا أصرخ...

- ماذا تريد مني؟ لماذا تفعل هذا بي؟ لم أعد أثق بأحد.

تزعزعت كل القيم في مهجتي ولم أعد أميز بين الواقع والحقيقة... بين الخير والشر وحتى بين الصديق والعدو. فأعظم البلاء عندما يلبس الشر لباس الحقيقة والكاذب لباس رجل الدين مثلما يلبس الذئب لباس الحمل الوديع.

أفقت على صوت أحد الجنود وهو يحاور ضابطه:

- سيدي أرى ضوءًا في نهاية البئر...

- هل يوجد أحد هنا؟

بكل ما أوتيت من قوة صرخت: "أجيروني أنا هنا"

قامت فرقة من المارينز بانتشالي من بين الموتى والأشباح والأحلام المهلكة. كان انتقال بهلول من عون لي إلى شبح يطاردني هي نقطة تحول جوهرية في صراع الخير والشر في داخلي وزلزالا تجاوزت قوته الحد الأعلى لمقياس "رختر" ونذير شؤم باقتراب دخولي المرحلة الثانية من لعنة سيد الرمال المتحركة. لم أكن بكامل وعيي عندما وضعوني في سيارة الإسعاف لكن آخر ما سمعته كان كلام المسعف وهو يقول: "انه يعاني من كسور في عظام الساق وجروح في مختلف مناطق الجسم".

(٨)

السفر إلى أمريكا

فتحت عيني وكل شيء حولي أبيض، الشراشف والحائط حتى الدواليب كلها بيضاء.

رجلي كانت مغلفة بالجبس ومعلقة بحبال ومساند في نهاية السرير، جانبي كان هناك عكازتان وكرسي متحرك وقتها أدركت أنني في المشفى وأنني عاجز عن الحركة بدون مساعدة.

كان ديسمند مسجى على سريره. حالته تبدو خطيرة لأنه محاط بالأجهزة وأنابيب داخلة وأنابيب خارجة من فمه وباقي جسمه. لم تكن الطلقة هي وحدها من فعل به كل هذا بل خيانة الضابط ابرا أيضا زادت "الطين بلة"، لكني أعرف صاحبي جنديا صلبا وقويا كناطحة سحاب صممها مهندس بارع لتقف شامخة أمام الإعصار. حتما سيتجاوز الأزمة ويقف على قدميه، أما أنا فيجب عليّ أن أنتظر عدة أسابيع حتى أستطيع الوقوف على رجلي من جديد.

ممرضتنا كان اسمها "باتريشيا". امرأة ثلاثينية من أوروبا الشرقية، بيضاء مكتنزة اللحم، تحب الدعابة والمزاح ومبتسمة دائما. أخبرتني "أنهم أحضروني البارحة إلى مستشفى القاعدة المركزية في بغداد بطلب مباشر من الضابط كولين".

- ربما نحتاج بعض الدم له ونحن لا نعرف أحدا من أقاربه أو أصدقائه.

قالت باتريشيا وهي تتفحص أجهزة ديسمند.

- يمكنك أن تفحصي دمي...آمل أن ينفعه...هل سيعيش؟

قلت وأنا أشير إلى صاحبي.

- لا أخفيك حالته حرجة يحتاج إلى مزيد من الراحة وسيزول الخطر خلال الأربع وعشرون وعشرين ساعة القادمة... يقولون من يتعرض لمثل تلك المواقف ثم ينجو فسوف يعيش طويلا".

سألتها "إذا كان طفلا صغيرا جميلا قد أتى معي إلى المستشفى" لكنها أكدت أنني أتيت وحدي بعد أن وجدوني في تلك الحفرة العميقة أصارع الموت.

- كانت معك تلك الحقيبة

أشارت بيدها إلى حقيبتي والتي خبأت فيها كتاب العزيف. الحمد لله أن عملنا لم يضع سدى.

مجرد أن خرجت الممرضة حتى نبشت حقيبتي بحثا عن الكتاب. كنت أتوق لمعرفة ما فيه.

كان يحوي على رسوم وصور للوحوش والشياطين وطلاسم مبهمة، بدأت أقرأ منه...

في فترة الفوضى سيحدث الخراب. كل شيء بدأ من بلاد ما بين النهرين، وسوف ينتهي كل شيء هناك. القطار السريع القادم من الغرب سيصطدم بحجارة الشرق، حتى يفقد الناس الوسطية ويتكتلوا ويصنفوا

أنفسهم وفقا للدين والطائفة والعرق فيكون صراعا دمويا فظيعا بين البربرية والحضارة. إنها حرب الأفكار. سيعم الحزن ويحل الظلام. فيفقد الناس عقولهم ويتبعون سيد الحشرات.

أعتقد أن الكتاب يقصد بسيد الحشرات هنا هو سيد الرمال المتحركة ولكن لماذا قال "سيد الحشرات" وليس "سيد الجراد" أخشى أن يتمكن صاحبنا من أن يسيطر على أكثر من نوع من الحشرات.

سيقود العالم إلى التطرف وتعم الكراهية والرغبة الشديدة بالانتقام. احذروا من ماء الموتى الذي يجلب الشياطين والجراد إلى الشرير العظيم. إذا اكتمل المرجل فسوف تتجمع الحشرات حول سيدها فلا يقدر عليه أحد وتكون نهاية العالم حتمية، واحذروا أشد الحذر من أن يقع هذا الكتاب بيد الشرير العظيم فيستخدم طلاسمه لتصبح قوته غير محدودة ويختفي الجنس البشري.

يجب أن تجدوا زهرة الخلود لتعيدوا بطل بلاد ما بين النهرين وأعظم ملوكها، ملك ملوك سومر وباني مجدها وصاحب الملاحم والبطولات، هو الوحيد الذي يستطيع صد هجوم الأشرار وتفتيت تجمعات الشياطين والأرواح الشريرة إنه كالكامش.

أغلقت الكتاب ونظرت إلى ديسمند وهو يغط في سباته.

ملك سومري نصفه بشر والنصف الآخر إله... كان جبارا قويا وله قدرات هائلة صارع التنانين وغلبهم وصارع الوحش العظيم في غابة الأرز وصرعه حتى إنه تغلب على عشتار إلاهة الحب والجمال.

ظل يبحث عن زهرة الخلود ثم وجدها ولكنه أضاعها في طريق العودة هذا هو الملك الذي نحتاجه للتخلص من الشر.

قاطع الضابط كولين خلوتي. كان يبدو عاجزا قليل الحيلة. لم تفلح غطرسته وقوته المفرطة في رد صاحبنا سيد الجراد. طلب مني أن أساعده فلم يعد يملك زمام الأمور. طائراته كانت تذهب بدون عودة.

- القاعدة المركزية هي آخر معقل متبقٍ لنا وسوف يصل إليها هذا الساحر وأعوانه في غضون أسابيع إن لم تكن أياما قلائل.

قال الضابط كولين وهو يجر المقعد ويجلس عليه بالقرب من سريري نازعا ثوب الجبروت الذي كان يرتديه.

كنت مستاء مما فعل الضابط ابرا وأحمل الضابط كولين مسؤولية ما حدث وقد برر هو موقفه بأنه لا يتبنى مواقف الضابط ابرا لا من قريب ولا من بعيد وكان متقاطعا معه في كثير من المسائل حتى إنه أمر بضرب مقرات العدو رغم معارضتي ومعارضة ابرا.

ما هي الحلول التي لدي وأنا أجلس في المستشفى عاجز وتحت الوصاية الأمريكية؟

هل أكتفي بما حصلت عليه من معاناة وأهرب من الهاوية إلى بلد العم سام طالبا مرحمة اللجوء؟

أنا لست "سوبر مان" لأنقذ بلدا مأساته أكبر من مجرتنا درب التبانة وحدود ألمه تتجاوز مساحة الفضاء.

لماذا أقحم نفسي في معترك الكبار والكل يقاتل هنا والكل يصفي حسابه هنا؟

ماذا عساي أن أفعل في هذه المطحنة التي ما هدأت رحاها ولا استراحت منذ فجر التاريخ؟

كم جميل هو الشعور بالحصول على "الكرين كارت" والسفر محترما إلى أغلب دول العالم بدون تأشيرة دخول. ما هي اللذة من البقاء هنا قرب أطلال الحضارة ونهرين قد جفا كأنهما يحتضران ويلفظان أنفاسهما الأخيرة؟

هاجس ملح كان يزجرني ويدفعني للهروب إلى الحضارة الجديدة هناك في النصف الآخر من الكرة الأرضية ولكن بعضًا مني يعاتب بعضًا آخر المعترض والمتمرد والراغب في الهروب " أين أجد شمسا حارقة وملتهبة مثل شمسنا؟ فجذوري هنا وأمي وإخوتي هنا ولكن الأهم من ذلك أنهم يحتاجون إليّ والغيوم السوداء قادمة وأنا معي ما يوقفها ويبعدها عنهم، أنا معي مفاتيح اللعبة، كيف أخالف وصية أبو وسام الذي ضحى بنفسه من أجلى وأوصاني أن أوقف الشر وأنقذ ما تبقى من عائلته إذا كان هناك بقية؟ كيف أنكث وعدا قطعته لرواسي وهي تملك قلبي والوجدان؟ كيف أدير ظهري لكل هؤلاء؟

- يجب أن نجد زهرة الخلود لنعيد كالكامش إلى الحياة.

قلت وأنا ولأول مرة أشعر أنى أمتلك إرادة فولاذية لا تقهر.

- أنا لا أفهم معنى ذلك ولكن قل لي ماذا تحتاج وأنا سأوفره لك.

قال الضابط كولين.

- بصراحة أنا لم أعد أثق بأحد.

- اسمع... أنا أستطيع أن آخذ الكتاب منكم بالقوة ولكني أرغب في أن نعمل فريقا متكاملا.

طلبت منه أن يؤجل الاجتماع ليوم غد حتى نكمل قراءة الكتاب ونكون فكرة متكاملة عن كيفية إيجاد تلك الزهرة. بالمقابل طلب مني الضابط أن أعطي الكتاب لمتخصصين في دراسة المخطوطات لكي يحلوا جميع طلاسمه لكنني رفضت وفضلت أن أفعل ذلك بنفسي.

احترم الضابط رغبتي وأخبرني بآخر المستجدات حيث أطلعني على صور التقطت بالأقمار الصناعية تبين تحركات ونشاط سيد الرمال المتحركة الذي بدأ فعليا في بناء مرجل حراري ضخم لإذابة صابون السحر الأسود لتوليد كمية كبيرة من ماء الموتى.

قدر الوقت المراد لبناء هذا المرجل من أسبوعين إلى ثلاثة وأكد أن العدو يقوم بتفجيرات انتحارية خارج حدود العراق.

عدة تفجيرات حدثت في أوكرانيا أدت إلى سقوط العشرات بين قتيل وجريح كما سيطر بعض الانتحارين على أجزاء من نيجيريا والصومال وموريتانيا.

لم تعد هناك مدينة آمنة وأي تجمع سكاني هو هدف للانتحاريين وبالمقابل أصبح التمييز العنصري على أساس اللون أو العرق أو الدين أو الفكر مطروحا بقوة كما أن الجراد يلتهم محاصيل وعقول الناس تاركا وراءه مدنا مدمرة وحوادث ما كنا نسمع بها سابقا فمنظر الأطفال الرضع المغدورين والمرميّين في المزابل بات منظرا شبه يومي متكررا.

- ازاد... أنا لا أعرف تفاصيل خطتك ولكني مضطر لأن أنتظر ثمارها قبل أن أستخدم المستوى الأخير من القوة.

الضابط كولين يلمح إلى استخدام قنابل فتاكة من العيار الثقيل مثل النووية أو الهيدروجينية. كنت أقرأ هذا في عينيه.

- هل تهدد بفعل ما فعل أسلافك في "هيروشيما"؟ إنها حماقة ووصمة عار. أنت بذلك تدق آخر مسمار في نعش السلم المجتمعي فحتى الذين هم ضد أفعال سيد الرمال المتحركة سيصبحون معه ضدك.

كل ما في الأمر أن من معه الترسانة الأقوى من السلاح يعتقد أنه فوق القانون أو بالأحرى هو من يصنع القانون أما المعارض فيهرب خارج القانون مبررا فعله بأن القانون ظالم ويخدم مصالح الطبقة البرجوازية الأرستقراطية وفي الحقيقة هما وجهان لعملة واحدة يضعان الناس في حلبة مصارعة الثيران ويرجحان مبدأ القوة فقط. خرج الضابط كولين وهو مصر على منحي مدة زمنية محددة قبل أن يتصرف على طريقته، طريقة رجل الكاو بُوي.

النصف الأكبر من عقلي كان معارضا لفكرة التعاون مع الضابط كولين فالشبهات تحوم حول ارتباطه بالضابط ابرا وبالتالي هو مرتبط بطريقة ما بسيد الجراد "ما دامت مفاتيح اللعبة بيدي فالأفضل ألا أشرك أحدًا معي فقد اختلطت الأمور عليّ والثقة شبه معدومة لكن النصف الحكيم من عقلي كان يفضل التعاون مع الضابط كولين لحين إيجاد زهرة الخلود فإيجادها بدون مساعدته أمر شبه مستحيل.

في الوقت نفسه كنت أشك في كل من حولي كان تفكيري مهزوز ومتزعزع، ماذا لو تمكنت الكوابيس مني وصحوت بلا ذاكرة؟

يجب أن أشرك أحدًا في المعلومات التي لدي ولكن من يكون؟

ماذا لو أن رواسي سعيدة الآن مع زوجها وابنها كما قال بهلول؟

ماذا لو أن الضابط كولين ما زال على اتصال بالضابط ابرا كما كان يقول ديسمند؟

ماذا لو أن ديسمند يحاول الإيقاع بالجميع ليظفر هو بالكتاب وقاموس الشياطين؟

يا إلهى كيف تحولت الثوابت إلى متغيرات في دماغي؟ يا إلهي أين المفر؟

كانت مخيلتي تسرح في عالم الاحتمالات والفرضيات لكني كنت على يقين بضرورة أن آخذ خطوة قبل سيد الرمال المتحركة فإذا استغللنا قوة وترسانة الضابط كولين لإيجاد زهرة الخلود وإحياء كالكامش من مرقده فسوف تكون لنا الغلبة.

صاحب الجراد يستغل كل إخفاق في النظم السياسية لصالحه كما يستغل ظلم الرأسمالية والفوارق الطبقية وحتى المشاكل العاطفية والمحن الشخصية التي تؤدي إلى الاكتئاب والنقمة.

عدت وفتحت الكتاب والترجمة بمساعدة قاموس لغة الشياطين وواصلت القراءة...

زهرة الخلود هي نوع نادر من أزهار السوسن تنبت مرة كل مئة عام. عندما يقترب الكتاب منها تزهر وتشع أما مكانها فهي عند الجبال الشوامخ

في الشمال، في حديقة أكبر مكتبة أنشئت في العالم القديم مكتبة آشور بانيبال الملكية. هذه الزهرة فقط من تعيد المنقذ الذي يستطيع الوقوف بوجه الطاغوت ويخمد العنف ويعيد لبلاد ما بين النهرين سماءها الصافية ونهريها العظيمين. احذر إنها فرصة واحدة كل مئة عام قد ينصب الشر لك مكيدة. إذا حصلت على زهرة الخلود ردد " كورول مورول كاركوت مانفوش" سوف تحميك الثيران المجنحة في مملكة آشور.

اتضحت الرؤيا الآن... وجهتنا المقبلة هي مدينة آشور في نينوى حيث أطلال المكتبة الملكية ولكني أعتقد أن هذه المنطقة أصبحت تحت سيطرة أنصار سيد الرمال المتحركة. ما هو الحل؟

يجب أن نضع خطة محكمة ودقيقة كنت أكلم نفسي وديسمند كان يغط في نوم عميق حسدته عليه. كانت المرة الأولى التي أتمنى أن أحصل على شيء يملكه هو وأنا عاجز عن امتلاكه.

كان الليل في أوله وأنا أقاوم النوم لكن كل من حولي يدعوني للنوم... الضوء الخافت والهدوء الرهيب. إلى متى أستطيع أن أقاوم؟

لا بد أن أشرب شيئا، قهوة أو شاي أو مشروب طاقة أو أي شراب يؤرقني ويبقيني يقظا ويحول دون دخولي عالم الكوابيس.

لمحت خيالا في الممر... كنت أعتقد أنه للممرضة ولكنه ليس كذلك أقصد لقد كان للممرضة ولكن ليست باتريشيا... لم تكن هي نفس الممرضة التي كانت ترعانا... كانت أطول وأكثر سمرة بل كانت شديدة السمار. كما لم يكن هذا هو الفرق الوحيد بينها وبين باتريشيا. لقد كانت عابسة وتنظر إلي

بشكل مريب. كنت أناديها لتجلب لي شرابا منبها ولكنها تخطتني وتوجهت إلى حيث يرقد ديسمند.

ظلت عيناي تتابعان تحركاتها لكنها كانت تحجب الرؤيا عني بظهرها لم أكن أرى ما تفعله لصديقي.

- عجيب غريب أمرها... ممرضة وبهذه القذارة.

قلت في نفسي وأنا أرصد بقعا صفراء وحمراء تتناثر على بدلتها التي من المفترض أنها ناصعة البياض ليس هذا فحسب لمحت مجسات حشرات تصعد وتنزل من جيبها.

"لحظة... لحظة... إنه الجراد".

قلت في نفسي مفزوعا.

تناولت قطع القطن ووضعتها في أذني من غير أن تنتبه الممرضة إلي ثم اتكأت على إحدى عكازتي وضربتها بالأخرى.

سقطت على الأرض ولكن الجراد كان ينتشر على جسم ديسمند حتى إنه يدخل من فمه.

بلا شعور وبلا توقف بدأت أضرب الجراد وصاحبي بالعكاز ة وأصرخ بهستيريا.

- ارحلوا عنه ... ارحلوا عنه...لا تؤذوا صديقي...

- ازاد... ازاد، استيقظ إنه مجرد كابوس...

كانت باتريشيا تمسك يدي وتصرخ بوجهي حتى أفقت.

أدرت وجهي نحو ديسمند كان مفزوعا من انفعالاتي في المنام أصارع الشياطين لكنه ابتسم لي محاولا اعطائي جرعة من الدعم مثل الأم التي تخفي متاعب الحياة خلف ابتسامتها الدائمة لأطفالها.

كأنما عيناه تقول لي: "ستكون بخير فقد تجاوزنا معا صعابا كانت أشد قسوة وأكثر شراسة".

تركت باتريشيا يدي وأخذت بعض المناديل الورقية لتمسح العرق الذي تصبب بغزارة من جبيني.

- حاول أن تنام وستكون بخير...

متصارعا بين اليقظة والنوم كنت أفتح عيني وأغمضها حتى غلبني النوم من جديد.

لم أستفق إلا بعد عدة ساعات ولكن غرفتي لم تعد بيضاء كانت مدهونة بطلاء مفرح وصديقي لم يكن بجواري فذهبت أقتفي أثره.

- ديسمند... ديسمند... أين أنت؟

كنت أنادي عليه حتى وجدته يتحدث مع فتاة في مطبخ أنيق يعد فيه الغداء.

الفتاة كانت ممشوقة تلبس "شورت" قصير و"تيشيرت". لم تكن من بنات العرب، كانت ترطن معه اللهجة الأمريكية.

- أهلا ... صديقي ...

قال ديسمند وكان يبدو وجهه مشرقا متعافيا.

- أين نحن؟ وكيف شفيت بهذه السرعة؟ ومن هذه الفتاة؟

تساءلت وأنا أنظر إلى تفاصيل المكان الذي حولي.

- أنت تسألني هذا السؤال كل مرة تستيقظ فيها منذ أن قدمنا إلى هنا... هذه صديقتي ليفا وهذا بيتنا. لقد فقدت جزءا من ذاكرتك بسب تلك الكوابيس فتركنا كل شيء وهربنا إلى أمريكا وقررنا أن نعيش حياة جديدة وننسى سيد الرمال المتحركة ومشاكله.

قال وهو يقبل صديقته ثم أكمل:

- " صديقتك انورا سوف تأتي بعد قليل لنخرج سويا... اليوم عيد ميلاد ليفا وسنحتفل حتى الصباح. كل التفاصيل وضعتها لك في ملصق على الحائط هناك لكي تنعش ذاكرتك"

أشار إلى الملصق وعاد ليعانق ليفا بحميمية.

شاحب الوجه مذهولا كنت أسير إلى الحائط حيث الملصق وأنا أقرأ النقاط التي أعدها ديسمند لي.

شعرت بالضياع لم أعد أسيطر على عقلي. لا أعلم هل هو نوع من الزهايمر؟ أم لعنة سيد الرمال المتحركة دخلت مرحلتها الثانية؟ المشكلة أنى أتذكر كل شيء حتى دخولي المستشفى ولكني لا أذكر كيف أتيت إلى هنا؟ على أي خطوط جوية طرنا؟ وفي أي مطار نزلنا؟ كأنما مسحت كل هذه الأحداث.

رن جرس الباب...

- إنها انورا...هل من الممكن أن تفتح الباب، يا ازاد؟

قال، ثم أكمل:

"صاحبي اتفقنا أن ننسى كل الماضي".

- مرحبا...

قالت وأنا أتفحصها، كانت بيضاء شقراء متوسطة الطول في متوسط العمر كل شيء فيها متوسط تقريبا.

- تفضلي... أنورا.

صرخ ديسمند من المطبخ بعد أن لاحظ وقوفها في الباب طويلا فأنا من شدة الذهول أصبحت بليد المشاعر غريب التصرفات، أحاول أن أربط الأحداث مع بعضها لكنني عاجز وأحتاج إلى أحد يخبرني أين الحمام وأين ملابسي ويخبرني اسم صديقتي المفترضة. أمر يحيلك إلى عاجز مشوش.

جلست انورا على طاولة بالقرب من المطبخ تنظر إلى ديسمند وصديقته بابتسامة ثم تعيد الكرة عليّ فلا تجد أي استجابة. أتخيل وجهي بلا ملامح، لا فرح ولا حزن ولا قبول أو رفض.

- هيا يا ازاد لقد تأخرنا اذهب وغير ملابسك... ستجدها في درج خزانتك على اليمين.

قال وهو يضع قطعة لحم في فم صديقته ويسألها عن رأيها في الطعام الذي يعده.

الحفلة كانت صاخبة راقصة ملتهبة... لا شيء يستر العرايا سوى قطع من القماش الصغيرة... الويسكي والفودكا وكؤوس النبيذ أحالت الحاضرين إلى أكوام من الخردة. شرب ديسمند الكثير بل شرب البحر كله... أما أنا كنت أشعر بالذنب لأني أظلم انورا معي حاولت أن أجاملها بشتى الطرق ولكن الجليد جمد مشاعري.

- "ما ذنب هذه الفتاة التي خرجت مع أصم أبكم مثلي؟".

بادرت بالحوار معها.

- يمكنك أن ترقصي معهما...

قلت لها ونحن نجلس على الطاولة نشاهد صاحبي وليفا يكسران خشبة المسرح رقصا.

- لا ... لا ... أنا مرتاحة هنا.

قالت بهدوء وهي تشرب كوبا من البيرة حتى جاء ديسمند وجذبنا بالقوة إلى المسرح لنشاركهما الاحتفال والرقص وليكسر الجليد الذي غطى شعورنا.

أغلق النادي الليلي أبوابه عند الفجر. معلنا انتهاء الصخب... صديقي يتكئ على صديقته والمشكلة أن الاثنين غير متوازنين ويترنحان وسط الشارع، رغم ذلك ورغم معارضة الجميع فقد أصر أن يقود هو السيارة. جلست ليفا بجانبه في الأمام وهي شبه فاقدة للوعي والتركيز تغني بأعلى صوتها أغنية إسبانية صاخبة وكنت أنا وانورا في الخلف.

- أنا أعرف أنك لن تتذكرني غدا ولكن هذا كان اختياري ولم يجبرني أحد عليه سأظل معك وسأتعرف عليك كل يوم من جديد.

قالت انورا وهي تحرك يدها باتجاه يدي حتى أمسكت بها.

- يجب أن تخفف السرعة يا صاحبي لقد تجاوزت السرعة المسموح بها.

قلت لديسمند لكنه لم يكن يصغي لي وكان كلما يسمع ليفا تغني يضغط أكثر على دواسة البنزين.

كانت لديه رغبة في كسر الإشارات الحمراء معها كأنه كان يريد أن يتخلص من عقدة الانضباط والالتزام بالقوانين التي كان يمارسها في أثناء

الخدمة العسكرية كما أنه بلا أدنى شك كان يعشق جنونها وقمة جنونها يتجلى عندما تثمل.

خسر السيطرة على المقود وانحرفت السيارة عن المسار واصطدمت بعمود الإنارة على جانب الطريق.

كان حادثا مروعا. ألسنة النار والدخان تتصاعد من كل زاوية. أنا وانورا لم نصب بجروح بليغة ولكني أحسست بحجم الكارثة عندما وجدته يحضن ليفا والدم يغطيه ويغطيها ويسيل على الأرض. لم تكن تتحرك أو تتنفس وحده كان يبكي ويصرخ.

- ديسمند... ديسمند...

كان صراخي يملؤ الغرفة فأيقظ كل من في المستشفى، حتى استيقظت وجسمي كله متوتر. الكوابيس بدأت تأخذ منحنى خطيرا. لم أعد أدرك الحقيقة من الخيال. اضطرت الممرضة باتريشيا أن تعطيني جرعة منومة أرسلتني على أثرها من غير أن تقصد إلى أمريكا من جديد.

ديسمند تغير كثيرا بعد الحادث. لأول مرة رأيت لحيته الصفراء تنمو بكثافة وعشوائية. لم يكن يرحب بي كثيرا مثلما كان. آخر مرة زرته فيها في شقته الجديدة. لم يستطع البقاء في بيته القديم فكل شيء يذكره بليفا. رغم هروبه إلا أن طيف حبيبته كان يزوره بين الحين والآخر فيعيد فتق جرحه العميق. شقته كانت مقلوبة رأسا على عقب، بقايا البيتزا هنا وهناك وعلب وأعقاب السجائر في كل مكان. المكان يبدو رثا.

كان يقول لي كلاما غريبا هذه المرة حتى أسلوبه في الكلام تغير. الحادثة أثرت فيه كثيرا ورحيل ايفا أثر فيه أكثر حتى أحسست أنه كبر عشر سنين. كان يقول لي:

- إننا على خطأ، نشرب الكحول والمخدرات ونلعب القمار في الملاهي والبارات والنوادي الليلية فتحولنا إلى حيوانات مفترسة لقد قتلت حبيبتي في يوم عيد ميلادها. أنا مجرم لا يكفر ذنبه. سيد الرمال المتحركة كان على حق فقد كان يريد صلاحنا ولكننا كنا نلهث وراء شهواتنا حتى قضت علينا. لا يوجد سوى طريق واحد للخلاص.

- ما هو؟

قلت وأنا مندهش من طريقة كلامه وكيف أن الدخول في نوبة اكتئاب حاد قد تغير سلوكيات الإنسان جذريا.

- يجب أن أفعل شيئا لنفسي ولروح ليفا.

قال وكأنه عازم على فعل شيء جلل.

نصحته أن يخرج من النفق المظلم ويعود كما كان ولكن الوقت تأخر كثيرا. لقاؤنا هذا كان الأخير. تنقل من شقة إلى شقة كالهارب من وجه العدالة أو كالذي فقد طعم الحياة في هذه الدنيا فراح يبحث عنه في دنيا ثانية.

صعقت عندما شاهدت صورته مقرونة بتفجير ملهى ليلي في ولاية "فلوريدا" راح ضحيته مئات الأشخاص في منظر يدمي القلب.

ديسمند فجر نفسه ليصلح خطأه ويحرر روحه التي لم تستطع البقاء بدون ليفا، هذا هو أسهل طريق للعودة إليها.

جثوت على ركبتي وبدأت أنحب بالبكاء: "اللعبة انتهت... سيد الرمال المتحركة أنا أعلن استسلامي لم أعد قادرا على الممانعة".

استيقظت على صوت الممرضة باتريشيا وهي تناديني بصوت مرتفع:

- ازاد إنه مجرد كابوس...

صحوت فوجدت الجميع ينظر إلي نظرة شفقة وكأني أتألم من مرض خبيث. لم يكن مجرد كابوس لقد كان كابوسا مروعا أدى إلى انهيار جهازي العصبي بالكامل.

نظرت إلى ديسمند

-"أنا يا صاح لست على ما يرام ولكن الحمد لله على سلامتك".

الانتقال السريع بين اليقظة والدخول في عالم الكوابيس خلط الأوراق عليّ فكنت أعتقد أنى فعلت الشيء وفي الحقيقة لم أفعله والعكس بالعكس. يبدو أن ذاكرتي بدأت تنهار.

كنت أفكر مع نفسي "لحظة... يا رباه ...هل معنى هذا أنى أستعد للدخول في المرحلة الثانية من لعنة سيد الرمال المتحركة؟"

(٩)

زهرة الخلود

الشائعات انتشرت حول شخصية سيد الرمال المتحركة مثل النار التي تلتهم الغابات الجافة في أطراف استراليا أو كاليفورنيا بسرعة البرق.

القنوات الإخبارية كرست الخبر الأول حوله وعشرات التقارير والقصص الخيالية منها والواقعية تتحدث عنه وعن جرائمه.

البعض يقول إنه أصبح شيطانا بجناحين والبعض الآخر يقول إنه مسخ إلى مصاص دماء يتغذى على عقول الضحايا على حين أتباعه يأكلون لحم البشر أحياء. بعض الشهود ادَّعوا أنهم شاهدوه يشوي جنود خصومه على العشاء في حين إحدى القنوات قطعت البث المباشر لمباراة "كلاسكو الأرض" بين ريال مدريد وبرشلونة لتذيع خبرا عاجلا عنه وهو يقطع أجزاء أحد معارضيه ويسلقها ثم يأمره أن يأكلها حتى مات.

عن قصد أو من غير قصد أسهمت هذه القصص في نشر الرعب بين الضباط والجنود حتى باتوا يتركون أسلحتهم ويهربون فور سماع نبأ قدومه.

"قاسم" وهو جندي في الجيش العراقي في قاعدة السلام في الموصل قال "إن الضباط والجنود فروا بمجرد سماعهم خبر عزم سيد الرمال المتحركة التوجه نحو قاعدتهم".

كما أكد "شهاب" وهو ضابط في إحدى المخافر الحدودية على التخوم السورية "أن جيش سيد الحشرات اجتاز الحدود العراقية باتجاه سوريا والأردن".

كما رصدت فرق استخباراتية دولية " أن أسرابا ضخمة من الجراد مركزها قاعدة الصقر تطير في الاتجاهات الأربعة".

كما انتشر نفوذه خارج العراق. أصبح قوة إقليمية لا يستهان بها أو ثقبا أسود يبتلع المدن الواحدة تلو الأخرى بلا هوادة.

عقدنا اجتماعا مطولا لوضع خطة الحصول على زهرة الخلود في حديقة مكتبة آشور بانيبال في نينوى. الإجماع كان أن نسلك الطريق إلى كركوك ومن ثم إلى دهوك في أقصى الشمال نستريح ليلة ثم ندخل مدينة آشور. حسب المعلومات التي لدينا كان هذا الطريق الأكثر أمانا. قلبي تسارعت دقاته عندما قررنا أن نمر بمدينتي كركوك. حصلت على رخصة من الضابط كولين أن أسلّم على أمي قبل المضي في مهمة تساوت فيها نسب النجاح والفشل، والفشل هنا لا يعني إعادة المحاولة لكنه يعني طريقا باتجاه واحد لا عودة فيه.

الضابط أيضا اقترح أن ترافقني قوة خاصة من المارينز لتوفير الحماية، أما أنا فلم أُشفَ بالكامل ما زالت ساقي لا تستطيع حمل جسمي. أحس بالعجز وأنا أتّكأ على عكازتي. حركتي كانت أبطأ والوصول إلى الأشياء أصعب.

التقيت بقائد الفريق، كان طويلا ومفتول العضلات. يلبس درعا وخوذة وعدّته كانت مهيبة تحوي كل أنواع الطلقات و"الرمانات اليدوية".

كنت أتمنى أن يستطيع هذه الجسم والعتاد أن يصمد أمام أسلحة سيد الرمال المتحركة.

الطريق إلى كركوك كان يتطلب قرابة ثلاث ساعات لكن الساعات كانت أطول لشوقي إلى أمي وذلك البيت الصغير الذي لا يخلو شبر منه إلا ولي فيه ذكريات حلوة ومرة.

أمضيت معظم الوقت أنظر إلى الطريق الذي وجدته مختلفا هذه المرة، فالتصحر أصبح أضعاف ما كان عليه مثل رجل تساقط شعره فغزا الصلّع رأسه. الأشجار ماتت والعديد من الحيوانات انقرضت. الجو أصبح أكثر جفافا وتلوثا. الهواء لم يعد صالحا للاستهلاك البشري. حتى دجلة الذي كان اسمه بالسومرية "أدجلاتو" والذي ما نضب منذ فجر التاريخ أصابه التيبس فتحول إلى نهير صغير. الأطفال يلعبون "الطوبة" في مجراه. لا أعلم إذا كان إهمال الحكومة هو السبب أو سحر صاحبنا قد طال كل شيء. إنها فقط أربع سنوات لا أكاد أتذكر شارعنا فقد تغير كثيرا فلم أستطع تحديد موقع البيت بالضبط لقد انشطرت البيوت كما ينشطر "البلاسموديم".

- هنا لا لا... إنه هنا .... تبا لا أعرف بالضبط

- أين بيت أبو ازاد؟

ترجلت أسأل الصبية الذين كانوا يلعبون "الدعبل" لكنهم رموا "دعابلهم" وظلوا يحملقون بي وبالسيارة المصفحة التي ورائي ثم ركضوا نحو البيت وهم يصرخون: "اهربي يا أم ازاد... رجل معه جيش وسيارة مصفحة يسأل عنك".

ولكني أعرف أم ازاد قلبها يدلها وما خاب من له قلب خال من "الدغش" يدله عندما تحل العتمة وتعمى العيون ولا تبقى إلا البصيرة. خرجت إلى الشارع " مفزوعة" وقد نسيت أن تلبس شالها ونعليها وهي تنادي باسمي حتى لمحت ضفائرها البيضاء من بعيد وقلبي يركض قبلي لملاقاتها.

قبّلت أمي وشممت رائحتها المحببة لدي وجلست معها وإخوتي جلسة صغيرة لم تكن تتناسب مع حجم الاشتياق.

الشيب غزا مفرقها وجعد العمر وجهها. سألوني عن ساقي المكسورة فلم أدخلهم في متاهات قصة سيد الحشرات التي لو قصصتها عليهم لما صدقني أحد ولقالوا أصابني المس، فقلت لهم سقطت من على شاهق في أثناء التدريب.

أختي الكبيرة "ورود" طبيبة وزوجها طبيب يسكنان بالإيجار وهما يجمعان القليل من راتبيهما لشراء بيت صغير.

أخي "ياسر" فكل حلمه أن يسافر فقد سئم البقاء وسئم التفاؤل حتى أصبح كئيبا ناقما على الوضع المتردي.

أختي "ميس" أصبحت لديها طفلة صغيرة جميلة بالإضافة إلى "لانة" ابنتها البكر التي جلست بكل جرأة في حضني على الرغم أنها كانت صغيرة جدًّا عندما سافرت. كانت متعجبة من الجبس في قدمي والجيش الذي حضر معي.

- خالو، هل أنت في خطر؟

كان سؤالها مزلزلا وكان يدور في بال كل الحاضرين لكن الإتيكيت والمجاملة حالا دون طرحه.

تلعثمت وتجمعت عشرات الجمل المتناقضة وغير المرتبة في مدخل فمي لا ترضى أيّ منها أن تخرج.

نهرت ميس ابنتها وسحبتها من حضني وقد نزلت دمعة خفية من "ورود" فحاولت تغيير الموضوع واستأذنتنا لتعد الشاي.

التراب يملؤ غرفتي التي لم يجرؤ أحد على تنظيفها فأغلب من حولي كانوا يعتقدون أن مهنة المترجم في الجيش الأمريكي هي طريق باتجاه واحد... طريق بلا عودة.

كنت أتلمس هدايا أبي وبطاقات التهنئة والرسائل التي كنت أتبادلها مع أصدقائي التي أحتفظ بها منذ زمن بعيد قبل تحولها إلى حروف الكترونية، على الرغم من أنها كانت تحتوي على عبارات سطحية لكنها تعكس براءتنا مثل "أتمنى أن تربح الكثير من "الدعابل".

كانت دعوة أم ازاد لي وهي تودعني فيها كثير من الفلسفة رغم بساطتها "اللّهم أعطه قلبا سليما".

من كان يملك منا قلبا لم يمسسه الدنس فإنه يملك كنزا لا يقدر بأغلى الأثمان.

واصلنا رحلتنا نحو الشمال لعدة ساعات حتى وصلنا دهوك مع مغيب الشمس.

المدينة ذات طابع جبلي وتطل على مناظر تسحر الألباب.

المهمة كانت في سرية تامة فتم تأمين بيت لنا في منطقة نائية بعيدة عن المدينة وعن الناس فيه كل المستلزمات اللازمة لمبيتنا.

استقبلنا كاكا أيوب فأحسن استقبالنا.

وكلمة "كاكا" كلمة كردية تعني "صديق أو الصاحب" تضاف قبل كل اسم لتعطي احتراما أكثر للشخص.

كاكا أيوب رجل كبير وحكيم ضعف نظره ولكنه يتمتع ببصيرة ثاقبة. ماتت زوجته قبل أعوام فدفنها في حديقة منزله وهو ما زال يلجأ إليها كلما كسرت الوحدة أضلعه وأضنى الاشتياق فؤاده.

قدم لنا الكباب الفاخر من لحم الغنم الخالص مع "الماستاو" وهو لبن رائب بارد يقدم في أواني "فافون" أو "ستيل".

- اليوم...القمر مكتمل ومحمر.

قال كاكا أيوب مقاطعا خلوتي مع سيجارتي في الحديقة.

- نعم... عندما كنا صغارا كنا نعتقد أن البدر المحمر نذير شؤم لشدة تأثرنا بكارتون "كريندايزر"

قلت وأنا أنظر إلى القمر وأبتسم.

- كانت جيوش كوكب فليد تهجم في هذه الليلة... كنت أشرح أحداث الكارتون لابني الصغير.

كاكا أيوب كان يروي القصص بشكل سلس ودرامي ممتع. لديه خزين هائل من الأحداث فعمره والأرض التي يعيش عليها حبلى بالحروب والاضطرابات مع نفحات من الحب بين الحين والآخر.

- يبدو أنك تحب زوجتك حتى وضعت قبرها بجوارك...

- إنها قصة طويلة...

كنت شابا في مقتبل العمر تخرجت من الجامعة وأنا أخطط لمستقبلي وفي جعبتي الكثير من الأحلام لأحققها لكن قدري أن الحروب صادفت ربيع عمري فدعيت للانخراط في الجيش في حربه الطاحنة مع الجيران.

في إحدى المعارك اشتد وطيس النار. قتل صديقي "رضا" وبدأ أصدقائي يقتلون الواحد تلو الآخر حتى قررت الهرب. كانت عقوبة الهارب من الجيش هي الإعدام ولكني لم أكترث، أنا في كل الأحوال ميت.

- ماذا حدث بعد ذلك؟

ظل الانضباط العسكري يطاردني وأنا أهرب كالمجنون من منطقة لأخرى حتى اقتحمت بيتا لا أعرف من فيه. طرقت الباب بشدة ففتحت لي الباب "مريم"، آخر جميلات قوم عيسى. كانت طويلة وترفة وطلتها تسحر الناظرين. طلبت منها أن أختبئ حتى ترحل اللجنة، وبدون أن تتكلم ولا كلمة أشارت إليّ أن: "اذهب إلى الحديقة الخلفية واختبئ في قفص الدجاج حتى يرحلوا". وكأنها رقّت لعيني اللتين تطلبان النجدة والمساعدة.

- كم هي شجاعة هذه المرأة؟

أبوها كان شيخا كبيرا عاجزا وهي معه ترعاه بعد أن تخلى عنه باقي أولاده، فأصبحت ترعانا نحن الاثنين أباها وأنا القابع في قفص الدجاج. كانت تحضر لي الطعام والماء لمدة يومين حتى هدأت الأجواء فعدت إلى بيتي وأنا أفكر فيها. لم أستطع النوم كان حبا عنيفا اجتاحني في وقت قصير.

العشق الصادق أعمى لا يميز فقد كانت مسيحية وأنا مسلم وكانت عربية وأنا كردي وكنت من أقصى الشمال وهي من الوسط.

تركت أهلي من أجلها وتركت أهلها من أجلي. هربنا إلى هذه المنطقة النائية وبنينا هذا البيت بأيدينا بدون مساعدة أحد. كل ما فيه الأواني والمقاعد والأسرّة كله من صنع أيدينا. كنا جسدين في روح واحدة أنجبت لي توأمين، ولد وبنت "نرجس وديارى" وماتت في أثناء ولادتهما. رحلت أم دياري وقد كانت تفيض حبا لو وزع على أهل هذه الأرض لكفاهم وفاض.

انظر إلى هذا البيت في كل شبر تركت بصمة. كانت تندهش كيف يكره الناس وقلوبهم ما زالت تنبض. لو أنها ما زالت حية وشاهدت ما يحدث الآن لشاب رأسها.

- أين نرجس وديارى الآن؟

سافرا إلى أوربا، دائما يتصلان بي ويطلبان مني القدوم إليهما وأنا أضحك وكيف أترك التي فهمتني من أول يوم رأيتها حتى مماتها.

- يا كاكا أيوب حبكما لم يعد له وجود، يشبه الحب العذري الذي انقرض مع قيس وليلى، ولكن كيف ضعف بصرك، هل هو حادث؟

لقد قال لي ابني قبل أن يسافر إنه "ماء أبيض" ويجب أن أجري عملية لكني لم أذهب للطبيب. لم يعد مهما. ماذا تريدني أن أرى بعد مريم؟ فأنا أشعر براحة لا يمكن وصفها عندما أجلس بالقرب من قبرها أتذكر معها أجمل الذكريات. لا تشغل بالك واخلد إلى النوم فغدا ينتظرك يوم شاق ولكن تذكر الحب هو من يمحو الإساءة والكراهية ويترك أثرا في قلوب الناس لا يمكن محوه. هناك مقولة مشهورة ترددها مريم تقول "**يحث الحب، تجد الله**".

في الصباح ودعنا كاكا أيوب بحرارة وانطلقنا إلى مدينة آشور. المنطقة كانت هادئة. مكتبة آشور بانيبال كانت خربة وحديقتها مهملة فنمت الحشائش والنباتات بشكل عشوائي.

أخذ القناص موقعه على ربوة مرتفعة وانتشر عناصر القوة الخاصة المدججون بالسلاح كل منهم في موقعه. قائد الفريق ظل يرافقني ويتواصل معي عبر الحاكية وسماعة الأذن.

- ضع هذا معك.

قال وهو يعطيني مسدسا.

- أنا لا أعرف استخدامه...

- فقط اضغط على الزناد عند الحاجة.

قال لي فأخذت منه السلاح وبدأت أبحث عن الزهرة.

كان الطين يعيق تحركي كنت أسير كسلحفاة تشق طريقها وسط الوحل لكني كنت عازما على أن أكمل الطريق إلى النهاية لأني أومن أنه الطريق الوحيد للخلاص.

قال القناص عبر الحاكية: "أشخاص قادمون من جهة الشرق..".

وضع قائد الفريق الكل في حالة تأهب: "هل تعرفت على ملامحهم وعددهم؟ هل هم مسلحون؟"

- امرأتان وطفل غير مسلحين.

أمر القائد القناص أن يرمي إطلاقة تحذيرية قريبة منهم لكنهم بدأوا يركضون نحونا.

فجّر الطفل نفسه على عناصر الجهة الشمالية. أحدث الانفجار خسائر بشرية وفتح ثغرة من الشمال وقد تمكن القناص من إصابة المرأتين.

"رجل يركض من الجنوب على بعد خمسين مترا".

قال القناص " واثنان آخران من الشرق".

أصابت عقلي غشاوة وتجمدت أطرافي لم أتمكن من الحركة من الخوف والرعب الذي حل بي في أثناء الانفجار. كان قائد الفريق يصرخ بي أن أعجل ثم تركني ليدير المعركة لكني لم أفلح في إيجاد الزهرة. لأول مرة لم يكن ديسمند معي، لقد افتقدته كثيرا في هذه اللحظات العصيبة.

أصاب القناص الرجلين القادمين من الشرق لكن الرجل الآخر فجر نفسه وأحدث ثغرة أخرى من الجنوب. ثم عم الهدوء في المكان. إنها لحظات لالتقاط الأنفاس.

- أمامك ثلاث دقائق إن لم تجد شيئا سنضطر للانسحاب. أصبحنا مكشوفين للعدو.

صرخ علي قائد الفريق عبر الحاكية.

- لا تضغط عليّ أنا أعمل ما في وسعي... لا تصعب الأمور أكثر.

قلت وأنا أفتش عن طوق النجاة وسط الحشائش والأدغال.

سمعنا أصوات سيارات تقترب منا... تقترب أكثر... كان الصوت يشتت تفكيري فبدأت أغني كي لا أسمع شيئا وأركز في بحثي:

بقي مربع صغير من الحديقة لم أصل إليه...

وجلستِ في الركن الركين تسرحين

وتنقطين العطر من قارورة وتدمدمين
لحن فرنسي الرنين
لحن كأيامي حزين.

-"عشرات السيارات تحاصرنا..".
قال القناص.

قدماك في الخف المقصب
جدولان من الحنين

- انفجرت سيارة من جهة الشرق... يجب أن نغادر...
قال القناص.
لم نعد نستطيع الانسحاب نحن محاصرون من كل جانب.
كان قائد الفريق يصرخ عبر جهاز الاتصال بمركز القيادة "نحتاج إلى دعم... نحن محاصرون".
-"وجدتها... وجدتها".
صرخت وأنا أشاهد زهرة الخلود تتفتح أمامي، كانت براقة ومشعة لم أشاهد مثلها في حياتي كأن بذرتها جاءت لنا من كوكب آخر.
دون تأخير رددت " كورول مورول كاركوت مانفوش". فإذا الثيران المجنحة تتحرر وترفس السيارات الملغومة. كانت ضخمة ولها أجنحة جبارة تحدث عصفا عند التحليق يشبه عصف الهليكوبتر.

تمكنا من الهروب والعودة إلى المناطق الآمنة في إقليم كردستان ومنها إلى القاعدة المركزية في بغداد.

- آمل ألا يكون الكلام المذكور في كتابك مجرد هراء...

قال ضابط كولين وهو متأثر بمقتل خيرة جنوده وإصابة الكثير منهم في هذه المهمة.

- لا تحملني المسؤولية عن هذه الخسائر. لقد فعلت كل ما بوسعي.

احتدم النقاش بيننا لكن الضابط كولين هدأ بعد فترة، وأرغمته قلة الخيارات على التفكير بإيجابية لمساندتي في آخر خطوة وهي إعادة الملك كلكامش.

- لدي مشكلة أعاني منها منذ فترة طويلة وأنا متردد من طرحها.

قلت له ذلك وهو على وشك الرحيل ثم توقف.

- ماذا لديك سيد ازاد؟

فقد أثار طرحي في نفسه الريبة والشك. شرحت له بالتفصيل قصة الكوابيس التي تحارب نومي وتهز الثوابت في عقلي.

كانت ردة فعل الضابط هي برهة صمت، ثم احمر وجهه الأملط وقال:

- لماذا لم تقل لي هذا الخبر السيئ منذ البداية؟ أنا متأكد من أن نهاية خدمتي ستكون على يديك، تعال معي...

خرج من الغرفة بخطى سريعة وتركني خلفه أصارع على عكازي... نزلنا إلى مبنى خاص تحت الأرض.

قال لي...

- رحب بالدكتورة لامارا ...

رحبت بها كما أراد وعيناي تفتشان المكان. غرف مقفلة بإحكام كل غرفة تحتوي على شباك واحد صغير. في الوسط توجد مكاتب عليها عدة حواسيب محمولة وطابعات، وأشخاص يلبسون بدلات بيضاء يعملون مثل دبيب النحل.

قالت الدكتورة لامارا:

- "إننا نحتجز الحالات الخاصة بلعنة سيد الرمال المتحركة هنا وقد نحتاج لإرسال الحالة إلى واشنطن إذا اقتضت الضرورة".

قالت وهي تشير بيديها إلى الغرفة الأولى:

- "لدينا هنا الحالة الأولى وأعراضها أن المريض يعاني من كوابيس تسيطر على رأسه طوال الليل. واللافت للنظر أنه يمر بحالة نوم عميقة جدًّا تقترب من الموت فتهبط إلى مستويات عالية جدًّا فتبطئ موجات الدماغ وتتحرك العينان بشكل سريع تحت الجفون كأنما يهبط إلى بحور من الظلمة ويحتاج إلى جهد مضاعف للعودة إلى حالة الوعي وبالتالي الاستيقاظ".

كنت أنظر إلى المصاب من الشباك وأستمع اليها وهي تصف حالتي وحالته بدقة متناهية.

أخبرتنا الدكتورة أنهم جربوا العديد من الأدوية والعقاقير لإيقاف تدفق الكوابيس عليه لكنهم فشلوا ولكن نوع الكوابيس والوقت الذي يحتاجه المريض للانتقال إلى المرحلة الثانية يعتمد بشكل كبير على تركيبة الشخص بشقيها الوراثي والمكتسب وإصراره على المقاومة.

أما المرحلة الثانية فهي انهيار بمنظومة الحفظ لدى المريض تدريجيا حتى تصل إلى الصفر وهي مرحلة قصيرة نسبيا ولكن الشيء المفرح أنها أضعف حلقات اللعنة، نستطيع أن نعيد ملء الذاكرة ببيانات جديدة قبل وصول سيد الرمال المتحركة إليها لحقنها بمعلومات مشوشة.

قالت الدكتورة :

- "النتائج التي حصلنا عليها مشجعة والمريض لدينا بدأ يستجيب للعلاج. آمل أن نكسر سلسلة مراحل هذه اللعنة".

سألت:

- "ما هي البيانات التي تبدأ بالانهيار أولا؟".

- الأقدم ثم القديم ثم الحديث والتفاصيل غير المهمة مثل رقم الشارع أو اسم شخص التقيت به مرة صدفة وهكذا دواليك حتى تصل إلى المعلومات المهمة التي عند نسيانها تظهر عجزا واضحا في تصرفاتك وقدرتك على التواصل مع الآخرين".

في المرحلة الثالثة تصبح الأمور أكثر صعوبة ويصبح المريض شارد الذهن كأنما يتلقى أوامره من شخص آخر. يمكن التعرف على المصاب بهذه المرحلة عن طريق العينين، يصبح بياض العين مائلا إلى الحمرة وبؤبؤها يتحرك بسرعة يمينا ويسارا ولا يركز مع الشخص المتكلم.

تم الإمساك بعدة أشخاص مصابين بهذه المرحلة يحاولون تجنيد الأطفال للقيام بعمليات انتحارية.

ففي اعترافات المدعو "أبو لظى" أنه حاول أن يقنع الأطفال المشردين بأنهم سيحصلون على جوائز عظيمة إذا ما نفذوا ما يطلبه منهم سيد الرمال المتحركة.

الوافدون الجدد مطالبون بقتل أعز شخص على قلوبهم ليؤكدوا ولاءهم المطلق لسيدهم، فعندما يقتل الشخص أمه أو زوجته أو أحد أطفاله فإنه يقينا يقدم برهان الطاعة العمياء بلا أدنى شك.

المرحلتان الأخيرتان هما حالات ميؤوس منها ولا أمل في علاجهما الأولى يصبح فيها المريض عنيفا ويحب استخدام السلاح. تمتاز هذه المرحلة أن صاحبها قد يصاب بها بدون أن يمر بأي مرحلة سابقة.

سألت الدكتورة لامارا...

- كيف يصاب الشخص بهذه المرحلة بدون المرور بالمراحل الأخرى؟

- ماذا تتوقع من طفل عمره عشر سنين يشاهد أفلام رعب فيها مناظر دم وقتل؟ ماذا تتوقع من طفل يلعب لعبة تعلمه كيف يصبح مجرما أو كيف يستخدم السلاح؟ إنه إزهاق لطفولتنا وإعدام البراءة في داخلنا. كما أن أغلب أفراد الجيش والشرطة والمهمات الخاصة وفرق الاغتيالات يعانون بشكل مباشر أو غير مباشر من هذه الحالة، فهم لديهم ميول مكتسبة لاستخدام السلاح بسبب عملهم.

أما الحالة الأخيرة فيا لها من حالة المصاب فيها مثل المريض بالسرطان في مراحله الأخيرة أو مثل المدمن الذي فتك "الحشيش" به فقال له الطبيب: "لديك شهر قبل أن تموت".

يرتفع الكره والانتقام هنا إلى مستويات قياسية غير مسبوقة ويسيطران على سلوكيات الفرد وتصرفاته إلى درجة أن يقف وسط السوق الشعبي ويفجر نفسه.

- دكتورة، هل هناك حل لحالتي؟

لكي أكون صريحة معك لا يوجد في الوقت الحالي أي حلول ولكننا منهمكون في إيجاد العلاج وأنا أعدك أننا سنجده. كل ما أطلبه منك أن تصمد وتقاوم حتى نتوصل إلى شيء.

أعطاني كلامها دفعة من الأمل والتحدي لمقاومة تلك اللعنة.

عدت أمشي بمساعدة العكازات قاصدا غرفتي.

"يا إلهي! لقد نسيت رقم الغرفة التي أسكن فيها".

(١٠)
كالكامش

بدأت أوثق كل شيء ليس لكوني متّسقا ولكن للحفاظ على المعلومات التي تضيع من ذاكرتي بشكل مخيف، أدوّن التفاصيل الصغيرة والكبيرة في سجل وأكتب أسماء الشخصيات المهمة والأحداث المفصلية على ذراعيّ.

أخبرت ديسمند بكل التفاصيل وأوصيته أن يواصل ما ابتدأناه سويا حتى لو فقدت ذاكرتي كليا.

أجهدت نفسي في البحث عن موقع قبر الملك كالكامش وتعلمت بعض مفردات ومصطلحات اللغة السومرية التي لم تكن غريبة جدًّا عن لغتنا الدارجة فكلمة "شعر" في السومرية "شير" وكلمة "جرخ" التي تعني الأسطوانة المدورة وهي مشتركة أيضا مع اللغة السومرية...

ديسمند تعافى قليلا وقرر القدوم معي، فسافرنا ليلا حتى وصلنا المدينة التي حكم ومات ودفن فيها هذا الملك. مدينة أوروك بالسومرية، والوركاء بالعربية، أو أواوريتش باليونانية هي مدينة سومرية وبابلية تأسست من حوالي أربعة آلاف سنة قبل الميلاد على المجرى القديم لنهر الفرات جنوب العراق.

لعبت هذه المدينة دورا مهما في العصر البرونزي. ظهر فيها أول حرف في العالم واخترعت فيها الكتابة ووجدت فيها ملحمة كالكامش الشهيرة وهي

أول نصوص أدبية تسرد رحلة الملك للبحث عن الخلود. وفقدت المدينة أهميتها بعد أن تحول مجرى نهر الفرات عنها.

عند بزوغ الفجر، وضعت زهرة الخلود على قبره، وفتحت كتاب العزيف وقرأت منه.

الجنود كانوا منتشرين في كل مكان وديسمند والضابط كولين ينظران إلى ما أفعله بدهشة:

يا أيها الملك العظيم...

يا من بنى الحضارة في أرض ما بين النهرين بالحب والحق.

يا من حارب الظلم والهمجية...

يا من سطرت أول ملحمة بالتاريخ بحثا عن الخلود فصرعت وحوش غابة الأرز وهزمت الآلهة عشتار.

انهض من قبرك تحت نهر الفرات لتحارب معنا الأرواح الشريرة...

انتظرت عدة دقائق وأنا أنظر إلى القبر وألتفت إلى ديسمند.

- لا شيء... كل هذا كان مجرد وهم ... لا شيء حقيقي...

أعدت الكلام مرة ثانية وثالثة بعد أن تأكدت من الترجمة ولم يحدث شيء أيضا حتى دب اليأس في قلبي واسودّت الدنيا في عيني.

طأطأت رأسي وأمر الضابط كولين جنوده للعودة إلى عرباتهم.

- الذنب هو ذنبي وثقت بصاحب أوهام وخيالات مثلك. أنت مفصول.

أطلق عليّ الضابط كولين رصاصة الرحمة لكن الأمور تغيرت.

ما هي إلّا دقائق من اليأس حتى عاد الأمل بعودة الملك كالكامش وهو يخرج من تحت الأرض. كان عملاقا وضخما شعره كثيف ولديه لحية طويلة، يحمل عصا في نهايتها حجر كريم متلألئ.

كان يتكلم باللغة السومرية فلم أفهم كل كلامه لكنني بالكاد عرفت أنه كان يقول:

أنا كالكامش... نصف رجل ونصف إله...

حاربت الظلم وسأفعل...

حاربت الجهل وسأفعل...

سأنشر الحب والسلام ...

ولن أتوقف حتى يعم السلام وتسود المحبة في أرض أوروك وبابل وما بين النهرين العظيمين "ادجلاتو" و" بوراتم".

فضرب الأرض بعصاه فظهر وميض ذهب بأبصارنا للحظات، بعدها بدأت مدينة أوروك برمتها تخرج من الأرض ببيوتها وقلاعها الشاهقة وأسوارها المحصنة وجنود جبابرة يخرجون من الأرماس التي دفنوا فيها بمحاذاة مجرى نهر الفرات القديم، ثم أخذوا أماكنهم على الأسوار وفي أبراج الحراسة، النصل والرمح والقوس وكل أسلحتهم كانت من ضوء لم أر مثله من قبل.

أمام البوابة الكبيرة للمدينة اجتمعت الثيران المجنحة والأسود العملاقة وأنواع أخرى من الوحوش الغريبة مثل طائر العنقاء وحيوان نصفه نسر والنصف الثاني أسد وآخر إنسان يملك قرني ورجلي ثور وقد وقف ليث أبيض مميز قرب كالكامش.

تجمع أهالي المدن المجاورة لمدينة أوروك بعد الصخب المرافق لعودة الملك ومملكته.

صعد الملك السومري على ربوة وقال بصوت جهوري:

بيان رقم واحد: كالكامش هو القائد العام لهذه البلاد حتى يعم السلام ويشيع الأمن في الربوع وقتها تنتهي مهمته ويعود ليستريح في قبره.

بيان رقم اثنين: كل المواطنين متساوون في الواجبات والحقوق وتُلغى كل الامتيازات التي أعطيت على أساس طائفي أو عرقي أو ديني أو قومي وتوزع ثروات البلد بالتساوي على أبنائه.

بيان رقم ثلاثة: كل الأجانب والأغراب مرحب بهم هنا ما لم يحملوا السلاح فإن حملوه أصبحوا أعداءنا.

عم الهرج والمرج بين الناس، فأغلبهم لا يعرفون اللغة السومرية وعن ماذا تحدث كالكامش، بل إن البعض لا يعرف من هو كالكامش (لعل الصواب هو كلكامش بغير ألف بعد الكاف الأولى، لو كان كذلك يجب استبداله في الملف كله) أصلا.

في الجهة المقابلة كان الجنود مرتبكين ينظرون إلى الضابط كولين ليوضح لهم ما حدث. ديسمند ألقى سلاحه لا أعرف إذا فعل ذلك من الخوف أو أنه فهم ما قاله كالكامش حول الأغراب. كان الضابط كولين ينظر إليّ لأترجم له بيانات القائد الجديدة.

لم يكن لديه خيارات متعددة غما أن يبقى مدنيا منزوع السلاح ومرحب به أو أن يبقى عسكريا يواجه الوحوش والعمالقة مع فرصة ضئيلة

للنجاة، كان أذكى من أن يتصادم مع هذه القوة فأمر جنده أن يرموا السلاح.

تقدمت لأكلم الملك الذي كان مهيبا وطوله تجاوز ثلاثة أمتار. على الرغم من الخوف لكنني أحسست أن هذا الجيش هو الوحيد الذي يستطيع أن يقف في وجه سيد الرمال المتحركة.

شرحت له التفاصيل التي رافقت ظهور سيد الحشرات حتى حصولنا على الكتاب ثم إيجاد زهرة الخلود وصولا إلى ظهور هذه المملكة من جديد.

طلب مني أن أبقى معه وأن تصبح هذه المملكة نقطة انطلاقنا باتجاه باقي المدن والقصبات، وبدون تردد وافقت فأنا لم أشعر لفترة طويلة بالأمان مثلما شعرت به اليوم.

لم أستطع كتم سؤال يقف على باب لساني، كيف ستعيد من أصابتهم لعنة سيد الرمال المتحركة؟ لكن الجواب كان صادما لي فكالكامش يستطيع أن يصنع شرابا يمنع الإصابة باللعنة ويوقف تقدمها لمن أصيب بها ولكنه لا يستطيع نزعها من المصابين بها أصلا. الحل الوحيد لعودتهم إلى طبيعتهم هو موت سيد الرمال المتحركة وهذا صعب جدًّا حاليا. من لم يصب بها فقد نجا ومن أصيب بها سيظل في المرحلة التي أصيب بها.

أطلق على هذا الشراب اسم "إكسير المحبة".

- إكسير المحبة! مِمّاذا يصنع؟ وما هو تأثيره؟

تساءلت بدهشة.

- خليط من الأعشاب يعمل بشكل إيجابي على نزع العنف والكراهية من عقولنا...

هدأت ضجة الناس. يبدو أنهم تفهموا الواقع الجديد وقد انشغل الملك في مملكته، ذهبنا أنا وديسمند كل منا إلى غرفته لأخذ قسط من الراحة، أما الضابط كولين فقد قرر العودة إلى مركز قيادة العمليات في بغداد ليتناقش مع قادته حول إمكانية التفاوض مع الملك كالكامش.

مضت عدة أيام وكالكامش يوزع "إكسير المحبة" على الناس ويوسع مملكته. اصطدم في بعض الضواحي بأنصار سيد الرمال المتحركة وكانت الحرب سجالا مرة يخسر وفي أكثر الأوقات كان يحرز النصر. فاوض الأمريكان وأجبرهم على إخراج القوات المقاتلة من جميع أراضي بلاد ما بين النهرين.

أما أنا فبدأت أسير على قدمي مع ألم بسيط بدون عكاز، لكن مسلسل ضياع البيانات من رأسي ما زال مستمرا فلم أعد أستطيع تذكر الكثير من الأمور. الأمر المفرح أن الأحلام لم تعد تراودني بتلك الحدة التي كانت عليها ولكن طيف رواسي كان يزورني كل ليلة، لقد أضناني الشوق إليها. فأنا لا أملك وسيلة للوصول إليها ولا شخصا أسأله عن حالها إلا صاحب الشعر الأشعث، بهلول وهو الآخر منقطع عني منذ فترة.

رددت " هاموش ماهوش بلتوش منتوش" حتى ظهر لي بهلول.

- أين أنت يا صاح؟ لقد أرعبتني عندما مثلت دور الشرير وطلبت مني أن أوذي ذلك الطفل.

قلت له معاتبا.

"سيد الرمال المتحركة هو من يسيطر على أحلامك الآن قد يتركك فترة ولكنه حتما سيعود بشراسة، أنا لم أعد أستطيع أن أفعل شيئا فيما

يخص أمنيتك الأولى وأنا في انتظار أمنيتك الثانية لألبيها لك، فهل أنت جاهز؟"

قال وهو يقلب في أثاث غرفتي.

- كيف حال رواسي؟

- هل هذه أمنيتك الثانية؟

كنت أحاول أن أجد إجابة لسؤالي، هل هي تعيش مع سيد الرمال المتحركة بإرادتها أم مرغمة على ذلك؟ لكي أطلب أمنيتي الأخيرة على أساس الإجابة لكنني لم أستطع الحصول على جواب من بهلول.

- أنت ترفض أن تساعدني لذلك سوف أذهب بنفسي لأتأكد.

- سوف يقتلك.

قال بهلول وهو مصدوم من كلامي.

- لن يستطيع فعل ذلك سوف آخذ الكتاب معي وأقايضه برؤية رواسي والتحدث إليها.

- سوف يخدعك لا تكن غبيا وتخاطر بهذا الشكل...

لم أكترث لكلامه وبدأت أفكر في الذهاب إلى معقل سيد الرمال المتحركة بنفسي.

(١١)

المواجهة الأخيرة

لبست بدلة الاختفاء وسرت لعدة ليالٍ حتى صعدت على تلة مقابلة لقاعدة الصقر العسكرية سابقا ومعقل سيد الحشرات حاليا. ألغيت خاصية التخفي وصرخت...

سيد الرمال المتحركة...

سيد الرمال المتحركة...

أنا هنا أمام عرشك بدون سلاح

أنا هنا أحمل بيدي كتاب العزيف وأنت تحتجز رواسي...

دعنا نتفاوض بدون غدر.

كنت ألوّح بالكتاب منتظرا أي رد منه على هذا العرض. فتحت باب القاعدة العسكرية لكن القاعدة كانت شبه مهجورة. الأبنية مهدمة إلا المرجل كان مكتملا تقريبا.

تجمعت أسراب الجراد من كل مكان حولي، وقتها علمت أنه قريب.

- أنا هنا لا أخاف من جرادك وشياطينك سأحرق الكتاب إن لم تُصغِ إلى مطالبي.

- كم أنت جريء، يا ازاد. لقد أثرت اهتمامي فأعتى القادة في العالم يخافون هذه القاعدة. هل الحب من دفعك؟ أم أنه الغباء؟ سوف نرى قريبا.

قال هو يتبسم.

تغير شكله كثيرا، أصبح أكثر قبحا. وجهه مشوه ومجعد كأنه يأكل اللحم نيئا ويشرب الدماء.

تسلق الجراد على جسمي، كانت أصواتها مزعجة وتثقب أذني.

لم أعد أحتمل وكانت عيني لا ترمش.

جهشت بالبكاء ثم قلت له:

- " اللعبة انتهت... أنا أستسلم... أنت الفائز..".

بدأ بالضحك وقال:

-"ألم أقل لك بأنك مثير للشفقة... خذوا هذا الجرذ وضعوه في الزنزانة حتى يصبح عبدا مطيعا ووفيا كالكلب".

نزعوا عني بدلة الاختفاء ورموني في السجن. الجراد كان يملؤ الزنزانة وأنا متجمد في مكاني يطغى عليّ السكون والسكينة. حركتي بطيئة جدا. كان الحرس يراقبون كل تصرفاتي. بقيت على هذا الحال لمدة يومين حتى دخل علي سيد الرمال المتحركة وقال:

- "كيف حالك أيها العبد؟".

- في أفضل حال، سيدي...

قلت له بهدوء.

صرخ في وجهي:

- "من هو سيدك أيها العبد؟"

أجبته:

- "أنت سيدي، سيد الرمال المتحركة".

تعالت ضحكات الغرور لديه فملأت المكان ثم طلب مني أن أقدم له قربان الولاء وهو أن أقتل شخصا أحبه كثيرا. لم يكن الأمر يحتاج إلى فطنة لمعرفة أن الشخص المقصود هو "رواسي".

أخذني الحرس إلى مبنى ثانٍ كانت طوابقه العليا مهدمة لكنهم سلكوا سردابا مظلما متعرجا تحت الأرض كان عبارة عن مدخل لشبكة من الأنفاق يحتوي على مجموعة من الدهاليز والغرف. كانت رطبة والنور لا يصل إليها بل كانت مناسبة لنمو الطفيليات والحشرات الضارة وأتباع سيد الحشرات.

في أثناء مسيرنا إلى غرفة رواسي مررنا على عدة غرف في إحداها كانت مجموعة تأكل الطعام، في الحقيقة كانت عبارة عن حيوانات متفسخة رائحتها نتنة جدًّا، أما الغرفة الثانية فكانت مملوءة بالأحزمة الناسفة والمتفجرات، أحد الأشخاص يجهز انتحاريا فيها لعملية ما.

أقحمني الحارس في غرفة رواسي وأعطاني مسدسا فيه طلقة واحدة...

كنت أنظر إليها وقلبي يمزق أضلعي من شدة الخفقان.

- "كيف حالك، أزاد؟"

قالت بهدوء وطفلها في أحضانها تنظر إليه ولا تنظر إلي. كنت أتوق توقا عارما لرؤية عينيها الواسعتين اللّتين أغرقتا أمهر البحارة.

أوضحت لها كل المسائل، لقد أخذت جرعة من "إكسير المحبة" فلم تعد حشرات سيد الحشرات تؤثر بي، وقد مثلت أني استسلمت له. كل هذا كي أراك. كما أنني سلمته نسخة مزيفة من العزيف واحتفظت بالنسخة الأصلية مع ديسمند.

أمسكت الطفل ألاعبه. يا ترى كيف سيصبح الصراع في داخله وهو ثلثه إنسان وثلثه شيطان وثلثه الأخير من الجان؟ سوف تؤرخ سنين عمره الصراع الأزلي بين الخير والشر وما بينهما.

- هل عرفتِ سر الصورة المعلقة في منزلك؟

تقول رواسي بأنها تذكرت العلاقة التي بينهما.

تقدم سيد الرمال المتحركة لخطبتها والزواج منها. كان إنسانا اعتياديا، فيه الخير والشر فيه قليل من طهر الملائكة وقليل من خبث الشياطين حتى أنجبت له طفلا فتغير بين ليلة وضحاها أصبح قاسيا ويعاملها بقسوة لكنه يقول لها بأن أناسا أشرارا يريدون أن يخطفوها...

- هل قال لكِ من هم هؤلاء الأشرار؟

- لم يسمهم ولكنه قال إنهم يعيشون في داخلي وهو أعرف.

كنت أطلب منها أن تعود إلى رشدها وتزن الأمور فهي هربت من شره فقد كان يلاحقها ليأخذ منها الخريطة فلما رفضت أرسل عليها شياطينه فقاومتهم حتى قطعت قدمها لكيلا تعود إليه لكنه نجح في إعادة ضبط دماغها بطريقة مخيفة.

سألتها:

- "هل أنت مرغمة على البقاء هنا؟"

جوابها كان مخيبا للآمال، تقول إن سيد الرمال المتحركة يريد مصلحتنا ويفكر بدلا عنا ويتخذ القرار الصائب لنا. قد يقسو علينا قليلا ولكن كل هذا يصب في مصلحتنا.

- "ولكن لماذا هناك آثار تعذيب على يدك ورقبتك؟"

قلت وبدا الغضب يسيطر علي، ولكنها بررت ضرب سيد الرمال المتحركة لها بأنه يحب العنف في أثناء الجنس.

- إنه مجرد سادي مريض ومجرم... هل تعرفين ما هي مهمتي؟ مهمتي أن أقتلك لكي أكسب ثقته.

- افعل ما يأمرك به سيدك.

رفعت رواسي عينها كانت محمرة والبؤبؤ يتحرك بسرعة، وقتها عرفت أنها دخلت في المرحلة الثالثة من اللعنة وتستعد للدخول في مراحل اللّا عودة. هي تردد رغباته فقط.

تفاجأت كيف سرقت الهمجية النور من عيونها الجميلة وأطفأت الضوء المستنير في قلبها.

حان وقت أمنيتي الأخيرة " هاموش ماهوش بلتوش منتوش".

- أنا من الجن وأخاف الدخول هنا، كيف فعلت أنت هذا؟ هل أنت بكامل قواك العقلية.

قال لي بهلول وهو يتلفت...

- لو كنت قد أحببت مثلما أحببت أنا وطني ونخلة بازغة في أرض الحضارة لما سألت، تشرب من ماء فرات يجري هنا ولكنه ينبع من الجنان

العاليات في السماء. لن أدع شجرة الزقوم تنبت مكانها لتحيل أرض السواد جحيما. ليس لدينا وقت يا صديقي، أريدك أن تحقق لي أمنيتي الأخيرة.

قلت وأنا أنظر في عينيه بثقة وعازم على فعل ما أريد.

طرق الحارس الباب وهو يصرخ

- " يجب أن تنهي مهمتك بسرعة... لديك دقيقتان فقط"

- ما هي أمنيتك الأخيرة؟ تذكر لا يمكن استخدامها في الشر.

أردت أن يرفع اللعنة عن رواسي ويعيدها إنسانة كما كانت.

أراد بهلول أن يقنعني بأن أغير أمنيتي لشيء ثان لنفسي ولكني كنت مصرا. تحققت الأمنية فقدت رواسي الوعي ثم عادت عيناها المشرقتان البراقتان واختفى بهلول إلى الأبد.

- أين أنا؟

قالت رواسي وكأنها تنظر إلى المكان لأول مرة. كانت مشوشة التفكير.

شرحت لها ما مرت به بشكل مختصر.

- رواسي... اعتبريني حبيبا أو صديقا أو طيفا مر يوما في بالك ولكن اسمعيني جيدا. هناك مجرمون خارج هذا الباب. يجب أن تهربي من هنا أنت وابنك. لديك قوتان خارقتان وهما الطيران وتجميد الأشياء تستطيعين أن تستخدميهما بعد أن أتخلص من الحارس.

- وماذا عنك؟ قلبي يخبرني أنك تملك جزءا كبيرا منه. لا أعلم كيف ومتى ولكني مضطرة لأصدقك وأصدق قلبي فلا أملك وسيلة أخرى، عقلي مشوش بالكامل وخارج عن الخدمة.

قالت وهي في حيرة من أمرها.

- اتبعي قلبك فهو الصادح المحكي وأي شيء غيره صدى.

أطلقت الرصاصة في الهواء وطرقت الباب. ضربت الحارس بمقبض المسدس فخرّ ساقطا في الأرض. وصفت الطريق لرواسي وطلبت منها ألا تلتفت مطلقا وأن تحلق بأقصى سرعتها.

طارت رواسي لتعانق السماء حرة كما ولدتها أمها، أما أنا فخرجت قاصدا الهرب لكني تهت ولم أتذكر طريق العودة فالممرات كلها متشعبة ومعتمة ومتشابهة. حكمت حدسي واتبعته. كنت أسير متخفيا وببطء كي لا يلاحظني أحد من الحرس على أمل أن أصل إلى خارج هذه الكهوف التي تصدر الرعب للعالم.

في أثناء المسير وصل إلى مسمعي ضجيج نقاش محتدم والصوت ينفذ من شباك صغير للتهوية كان هو الشباك الوحيد في الغرفة دفعني الفضول لأسترق النظر. الغرفة عبارة عن قاعة اجتماعات كبيرة تتوسطها طاولة مستطيلة، كانت شاشة تلفاز معلق على الحائط بالقرب من نهايتها والحاضرون ينصتون باهتمام بالغ ونوع من الخشوع إلى اتصال متلفز يبث حيا من خلالها. رجل مسن لكنه بصحة جيدة شعره شديد الصفرة ومصفف بطريقة غريبة يتحدث عبر الأثير إليهم بنبرة استعلاء توحي أنه مدير المشروع أو مالك الشركة، هيئته لم تكن أبدا عربية ولا حتى لغته لم تكن عربية.

أعدت النظر إلى الحاضرين أتفحصهم فصدمت عندما وجدت سيد الرمال المتحركة والذئب، الضابط ابرا من بين الحاضرين.

دهشتي تضاعفت عشرات المرات عندما سمعتهم ينادون أحد الحاضرين "سيد أبو زيدون" فلم يكن الاسم غريبًا على أذني فأخذت أفتش فيما تبقى من ذاكرتي فوجدت قصته مع العاهرة لهيب التي رواها لنا صديقي عماد، سائق التكسي قد ترسبت على جدران عقلي ولا ترغب في المغادرة مثلما فرت معظم الذكريات مني كما يفر الناس من مدينة ابتلاها الله بالطاعون. "نعم... نعم ... هو هذا أبو زيدون كما وصفه عماد بالضبط الزبون الثقيل والمسؤول الكبير بالدولة، أقرع وبدين ويلبس نظارة شمسية في الظلام".

الآن اكتملت فصول المسرحية بلدي بين مسؤول سارق وأعجمي مارق يديران ويخططان ويمولان الدمى المتحركة عن بعد أما صاحبنا فيدس السم في العسل ويغلف الحق بالباطل ويحول القاتل إلى بطل فإذا ضربت بالخلاط المال السحت مع فساد الحكومة وعجزها وملعقتين من التطرف والكراهية وكثيرا من الظلم والرغبة في الانتقام ستكون المحصلة كوكتيلا طعمه مر كالعلقم اسمه "سيد الرمال المتحركة"

سيطر الحقد علي وعلى تفكيري فلم أعد أملك زمام الأمور وأضعت البوصلة فهاجس الانتقام من هؤلاء أصبح كل هدفي. ركضت أفتش عن غرفة الأحزمة الناسفة والبراكين تثور في رأسي، ارتديت واحدا مليء ب "سي ٤" و " تي ان تي" ورجعت أقصد طريدتي، سيد الرمال المتحركة ومن يقف خلفه.

"كيف أسمي سيد الرمال المتحركة مجرما وأنا أستخدم نفس أسلوبه؟ هل يمكن علاج الخطأ بالخطأ؟ لماذا إذن عارضت الضابط كولين في تدمير قاعدة الصقر؟ ومتى سيتوقف نزيف الدم إذا كنا نقابل العنف بالعنف؟"

كنت أحاور نفسي وخطواتي تتثاقل وأصبح الطريق طويلا كأنه من بغداد إلى الصين...

"ما هي ردة فعل ابن سيد الحشرات عندما يكبر ويسمع أن أباه قتل في انفجار. أكيد أنه سيحقد على القاتل ويحاول الانتقام منه وسيولد سيد رمال المتحركة جديد وهكذا تستمر السلسلة".

توقفت ... أصبحت مترددا ...

- "أين سيكون مصيري بعد أن أفجر نفسي؟"

جثوت على ركبتي. قدماي ترفض أن تحملني فهي ما عادت تطيعني...

تجمع الحرس فوقي فبادر أحدهم بضربي على رأسي فأغمي علي.

اقتادوني إلى ساحة كبيرة فيها جمهرة من المؤيدين لسيد الرمال المتحركة.

كان أبي يكلمني طول الوقت فلا أسمع هتاف الناس وهم يصرخون "اقتلوا المجرم ... اقطعوا رأسه ..".

كان هناك طابور من النساء والرجال ينتظرون السياف أن يفرغ ليحز رؤوسهم وسط فرحة عارمة من الناس لا أجد تفسيرا منطقيا لها. كان سيد الرمال المتحركة وسط الحشد والرجال والنساء من حوله يقبلون يده ويتمسحون بعباءته، كان يرفع يده اليمنى معطيا الإذن للرجل الضخم الذي لا ترمش عيناه ولا يرف قلبه من كل هذه الدماء لقطع رأس الضحية.

جاء دوري رفع النصل منتظرا الإشارة ليحز عنقي. نظرت إلى عيني سيد الرمال المتحركة فشعرت ولأول مرة بالخوف والرعب فيهما فأسرع بإعطاء السياف الضوء الأخضر، أدركت كيف ينتصر الدم على السيف. لم أعد أشعر بالألم ولا بالحزن لم أعد أشعر بشيء...

❊ ❊ ❊